طبعة ثانية

أثير عبدالله النشمي



# في ديسمبر تنتهي كل الأحلام

رواية








أثير عبد الله النشمي



# في ديسمبر تنتهي كل الأحلام

رواية




دار الفارابي

في ديسمبر تنتهي

# في ديسمبر تنتهي
# كل الأحلام

أثير عبد الله النشمي

# في ديسمبر تنتهي كل الأحلام

روايـــــة

دار الفارابي

الكتاب: في ديسمبر تنتهي كل الأحلام
المؤلف: أثير عبد الله النشمي
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
**e-mail:** info@dar-alfarabi.com

www.dar-alfarabi.com

**الطبعة الأولى: كانون ثاني 2011**
**الطبعة الثانية: آذار 2011**
**ISBN: 978-9953-71-688-6**

## الإهداء

إليكم..

لا تسألوا الطير الشريد، لأيّ أسباب رحل..!

**فاروق جويدة**

# مدخل

"الرواية طريقة الكاتب في أن يعيش مرة ثانية قصة أحبها، وطريقته في منح الخلود لمن أحب " ..

**أحلام مستغانمي**

تدهشني كثيراً هذه المرأة.. تدهشني فوضويتها في الحياة، جنوح مشاعرها.. و"اللاشيء" الذي يربطها بأي شيء أو أحد!.. لست أعرف إن كان هذا هو ما يغريني بها،.. ما أعرفه جيداً هو أنها امرأة استثنائية، خلقت من "طين" لم يخلق منه بشر.. وأعرف أن هذا يغريني، يغريني جداً.. أنا التوّاق إلى تجربة ليست كأي تجربة، لقدرٍ لا يشابهه قدر.. لامرأة أقامر بها ببسالة من دون تردد أو خوف..

أظن بأني أجازف معها كثيراً، أراهن على مجهول لا يربطني به سوى إيمان خفي ينبئني بأن فيه الكثير من ألغاز السماء، لكن على الرغم من أني أعرف جيداً بأن حلول تلك الألغاز ستظل عالقة هناك، وبأن إجابات الأسئلة ستظل معلقة، إلا أنني لست شغوفاً بكل تلك الإجابات وتلك الحلول.. أنا لا أحتاج لأن أدرك

ماهيتها.. هي التي أفهم فيها كل شيء.. ولا أعرف عنها شيئاً..

أنا لا أحتاج لأن أعرف من هي.. وإلى ماذا سنؤول.. كل ما أحتاجه هو أن أمارسها كعبادة.. أن تظل في حياتي القانون، والدين والخط الأحمر!.. هي التي لا تلتزم بأي من هذا.. ولا تؤمن بأي رادع..

أذكر أنها قد قالت لي يوماً: إنَّ القوانين وضعتْ ليلتزم بها بعضهم، وليخرقها آخرون..

سألتها حينها: من أيّ الصنفين أنت؟

ـ أنا لا أخضع للقانون حتى ألتزم به أو أخرقه.. فلتفترض بأنني خارجة عنه..!..

وابتسمت حينها، لأنني كنت أدرك بأن امرأة مثلها مستثناة من كل القوانين، لا يحكمها نظام.. ولا يقيدها دين.. ولا تؤمن سوى بنفسها..

يدهشني كثيراً أنها لم تسألني يوماً عن اسمي!.. يدهشني أكثر أنني لم أجرؤ يوماً على أن أسألها عن اسمها.. وكأننا نخاف الأسماء.. وكأنها تشير إلى ماهيتنا التي لا نرغب بمعرفة حقيقتها يوماً.. كلانا يفضل أن يبقى الآخر شهياً بغموضه، مثيراً بكونه

مجهولاً..كلانا أحب هذه اللعبة، وغرق في الآخر حتى النخاع بكل هذا الكم من الشغف والحب والتّوق.. بلا ماهية تميزنا.. ولا قانون يحكمنا.. ولا أسماء نُعرف بها..!..

أعرف بأن هناك ما يربطنا، ما يبقينا مشدوهَين إلى بعضنا بعضاً على الرغم من مرور كل هذه المدة.. هناك انقلاب عنيف، جنون صارخ.. أحلام محرمة، ولغة ثائرة تجمعنا.. أنا وهي الجانحان بشدة، الثائران بغضب، المتمردان بلا حدود.. الباحثان عن شيء لا يدركانه بلا خريطة ولا خطة ولا أدنى فكرة!..

كيف أحبها بكل هذا العنفوان من دون أن أعرف عنها شيئاً!.. وكيف لا أعرف عنها شيئاً وأنا أعرف منها وبها كل الأشياء..

لما يشتتني "أحياناً" جهلي باسمها، بعمرها، بمكان مولدها، بعمل تزاوله في الحياة!..

لا أدري إن كان جهلها "بي" يفعل "بها" بعضاً مما يفعله "بي" جهلي "بها"..!.. حقيقة، لا أدري، لكني أعرف جيداً بأننا لسنا كسوانا، بأن التخمينات تجمعنا ولا مكان للحقائق بيننا..

تخميناتي تصرّ على أنها هاربة من أرض بعيدة.. أرض قاسية.. جعلت منها هذه المرأة "الثائرة" جداً.. لكن لغتها العربية المفرطة "البياض" لا تشير إلى رقعة!..

ملامحها المتغيرة "دوماً" لا تشير إلى عمر محدد!.. في كل مرة أراها فيها.. تدهشني ملامحها وكأنني أراها لأول مرة.. لكل جانب من وجهها عمر، لكل ابتسامة طبع.. ولكل نظرة حكاية..!.. لست أعرف إن كانت في الثلاثينيات من عمرها أم أنها تعيش أربعينياتها برشاقة!.. ولهذا سيبقى عمرها معلقاً في تخميني حتى دلالة لاحقة..

***

ظننت بأني خلقت لأكتب فقط.. لم يكن يعنيني شيء في حياتي كلها سوى أن أكتب..كنت أتوق إلى كلّ حرف في كل وقت لأن الكتابة بالنسبة لي كالحاجات الملحة.. لم تكن كهواية أمارسها في وقت الفراغ بل كانت كالرغبات الحادة التي لا نقدر على مقاومتها، ولا

نجيد السيطرة عليها وإن كانت تنهكنا على الرغم من اللذة!..

لطالما ظننت بأن الأمر سينتهي بي برفقة أوراق وقلم... كنت أعتقد بأنني أعرف جيداً ما سأنتهي إليه، وبأن حروفي وحدها من ستحزن عليّ، لكنها عندما جاءت ما عاد الموت يشقيني، ما عاد الحرف يغريني وما عدت أفكر في ما وراء الموت والأشياء والكلمات..

عندما تتحدث يسقط الفلاسفة في نظري، يتخبط العلماء، يتلعثم الشعراء.. وينهار كل كبير عداها.. حينما أتوغل بها، أشعر بأنني قد غزيت العالم وامتلكته!.. أشعر بأنني قادر على استباحة كل شيء، كل شيء!.. ورجل سايكوباتي مثلي يهوى السيطرة، القوة، التحكم، العنف.. والاستباحة!.. وقد كانت بالنسبة لي جميع الخلق وكل العالم، فاستبحتها حتى "آخري"، لأن مداها لا نهاية له.. ولأنها امرأة لا آخر لها..

لو تدري كم أهواها!.. كم أعشق حالاتها كلها..!.. هي التي أتجرد أمامها من كل شيء، والتي

تتجلى أمامي كشمس حرة لا يقدر مخلوق على حجبها.. هي امرأة لا تحجبها سوى قوة إلهية عظمى، امرأة لها القدرة على أن تتسامى حتى حدود السماء.. لكنها تعود أدراجها عندما تشتاق إلي.. لتعبث معي وتلهو بي من دون أي إحساس بذنب المعصية..

هي مزيج لذيذ، تركيبة عجيبة ومثيرة في الوقت ذاته.. أراقبها عندما تتنصل مني فجراً وهي تغادر الفراش لتستحم سريعاً وتصلّي بعد ليلة طويلة من اللذات المحرّمة.. تصلّي بعفوية وكأنه لا يحجبها عن الله شيء.. ومن ثم تعود إلي لتستكمل معي عبادة من نوع آخر.. عبادة أكون فيها الإله والمشرّع هذه المرة..

تشعرني دوماً بأنها تعرف السبيل إلى الله، هي التي قالت لي في لحظة سكر، بأننا لا نستدل على الله بل نستدل به.. ولا أزال، حتى هذه اللحظة، غير مدركٍ كيف تستشهد امرأة في آخر مراحل الثمالة بأحاديث قدسية!..

أتوق كثيراً لأن أفهم موروثها اللامنطقي، لأن أدرك مخزونها من المتناقضات اللامنتهية، لأن أمارس معها

الفجور، كل أنواع الفجور.. مثلما يغريني أن أراقب طاعتها لخالق قطعت علاقتي به منذ زمن..

لم يعد يخيفني شيء بعد أن عرفتها سوى أن أخسرها.. أخاف كثيراً من أن تختفي فجأة مثلما ظهرت فجأة.. أن تعود إلى المجهول مثلما جاءت من حيث لا أدري!..

قد لا تدرك كم تقضّ مضجعي الأسئلة!.. تاريخها لا يعنيني أبداً.. لا أكترث لكم من رجل عَبَرَها قبلي، ولا لكم من رجل نبض قلبها.. لكني أخشى كثيراً أن تكون زوجة لأحد!.. ترعبني الفكرة، ولا قدرة لي على سؤالها عنها، لأننا اتفقنا "من دون أن نتفق" على أن تظل كل الحقائق معلقة، أن نرضى بمصادفات القدر وأن نعشق بعضنا بلا عناوين ولا أسماء.. لكن امرأة متمردة مثلها يتوقع منها أي شيء!.. هي امرأة لا تؤتمن في الحضور.. قد تغادر في أي لحظة ولا تعود.. وأمثالي لا يعبث معهم في أمور الغياب..

حينما سألتها مرة بعض الأسئلة، اختفتْ فجأة!.. عاقبتني بالغياب فبتّ أبحث عنها في كل مكان.. كنت أمشط الطرقات بحثاً عن امرأة لا اسم لها ولا عنوان..

ظللت أبحث لأسابيع، اعتزلت فيها عن كل شيء سواها.. شعرت، وقتذاك، بأن كبريائي يحترق، لكنني لم أكترث لكبريائي تلك المرة، لم يهمني شيء، وقتذاك، سوى أن أجدها!..

أذكر اللحظة التي وقعت فيها عيني عليها بعد طول غياب، رأيتها تجلس في أحد المقاهي المفتوحة التي كنا نرتادها للقاء.. تدخن بهدوء مستفز، أمامها كوب قهوة، كتاب تزينه صورة لفولتير، وعيناها مصوبتان نحوي بندّية!..

اقتربت منها وأنفاسي تتصاعد بحرارة، لكني لم أجرؤ على أن أنطق ببنت شفة، تفحّصت ملامحها لأتأكد من أنها لا تزال كما هي.. وقد كانت كما لو أنها غادرتني قبلها بليلة، وإن ازدادت نظراتها تحدياً!..

قالت لي وخيط من الدخان يتصاعد من بين شفتيها: ألا تزال لديك أسئلة؟!..

مسكتها من ذراعها بقوة وهمست في أذنها: هيا بنا!..

جاءت معي!، ركبت سيارتي من دون أي مقاومة.. لكننا لم نتحدث طوال الطريق.. كنت أسترق النظر إلى

كتاب فولتير النائم في حضنها بغضب، لم أكن بحاجة إلى الكثير من الذكاء لأدرك بأنها قد أحضرته لي!.. فهي لا تحب فولتير ولا تقرأ له إلا من أجلي.. كانت تعتقد بأنها ستصالحني به.. لذا كرهت فولتير كثيراً يومها!.. كرهته لأنها ظنت بأنه قادر على أن يعوّضني عن أيام غابت فيها عني!..

ليلتها، كنت قاسياً معها.. لكنني لم أعاتبها خشية أن تعاود الغياب.. ولم تسألني هي عن سبب خشونتي، ربما لأنها كانت تدرك أسبابه!.. كنت خائفاً جداً لأنني بتّ أعرف بأنني قاب قوسين أو أدنى من اختفائها!..

سألتها بعد ذلك بأيام: كيف تفعلين هذا؟!.. كيف تختفين فجأة وتظهرين فجأة؟!..

قالت بسخرية: أتظن بأنني ساحرة؟!..

ـ لما تجيبين عن الأسئلة بالأسئلة؟!..

ـ ألم يقل فولتير بأننا لا بد من أن نحكم على الأشخاص من خلال أسئلتهم بدلاً من أن نحكم عليهم من خلال إجاباتهم؟!..

ـ وهل ظننت بأنني سأحكم عليك من خلال إجاباتك؟!..

ـ لماذا تسأل كثيراً إذن؟!..

ـ لأنني بتّ أشك في ماهيتك!.. صدقيني أصبحت أشك في حقيقة وجودك..

ـ أتشكّ في وجود ما تدركه بحواسك؟..

ـ لا أعرف، ساعديني أنت.. أنقذيني من حالة الشك هذه..

ـ ألا تؤمن بأن سبب الاضطراب والقلق هو الإلحاح في معرفة الأشياء كما يؤمن بعض أصدقائك من الفلاسفة؟

ـ وبماذا تؤمنين أنت؟!..

ـ أؤمن بأن اليقين ما هو إلا ادعاء!.. وبأنه لا وجود للحقائق المؤكدة في هذه الحياة.. كل ما يحيط بنا مشكوك في وجوده..

ـ حتى أنت؟!..

ـ حتى أنت!..

قلت بسخرية: لكنك تدركينني بحواسك كلها!..

ـ ألم تسمع بالوهم يوماً؟!..

ضممتها بشدة ويداي تتحسسان جسدها: أأنت حقيقة؟!..

ـ أأنت حقيقي؟!..

ـ أتدركين كم تجيدين طرح الأسئلة؟!..

ـ أتدرك أنت بأني لا أجيد الإجابة عن شيء؟!..

ـ أجيبيني عن سؤال واحد فقط، وتجاهلي كل ما سأطرحه عليك يوماً..

ـ لست بقادرة على أن أجيب عن أسئلتك!..

ـ ألا ترغبين بمعرفة سؤالي أولاً..؟!..

ـ أتظن بأنني لا أعرفه؟!..

ـ ماذا عنك؟!.. ألا تحتاجين لأن أجيبك عن شيء؟!..

ـ وهل ستجيبني؟!..

ـ أظن بأنني سأفعل!..

ـ أظن بأنك لن تجرؤ!..

وضعت رأسي على صدرها وقلت: لجسدك رائحة القصائد!..

ـ وهل للقصائد رائحة؟!..

ـ للقصائد رائحة لا يميزها سوى الشعراء..

ـ أأنت أحدهم؟!..

ـ أنا قلم، مجرد قلم !، ماذا عنك..؟!..

ـ أنا حكاية!..

ـ ألن تكفّي عن التراشق بالكلمات معي؟!..

ـ فلتكفّ أنت..

قبّلت رأسها: لا بأس!.. أحبك هكذا!.. بأسرارك وألغازك كلها..!..

ابتسمت ساكنة، فرحتُ أفكر فيها كحكاية أسطورية من ألف ليلة وليلتين !، حكاية أحتفظ بها بيدبا لدبشليم وحده.. فلم يطّلع عليها أحد سواي!..

***

غبت طويلاً هذه المرة..

لكني لا أحاول التفكير في أسباب الغياب، أتجنب التفكير في متى ستكون عودتها.. لا أفكر في إن كانت هناك عودة من الأساس.. كل ما أفكر فيه حقيقة هو أنه لا بد من أن لها أسبابها!.. الأسباب التي يبدو بأني لن أعرفها يوماً..

أحاول أن أعوّض غيابها بممارسة عاداتها كلها، أنا الذي لم أتبنَّ يوماً عادة لأحد!.. لكنني بتّ أمارس عاداتها وكأنني استحثها من خلالها على الرجوع...

أصبحت أستيقظ كل يوم على صوت سيتا هاكوبيان الرقيق، وأنام على حزن سعدون جابر.. ولا أفهم ما هو الرابط بينهما، ولما تعيشهما بكل هذا القدر من الحاجة!..

قد لا تصدقني لو قلت لها بأنني أصبحت مثلها، أصبحت من أشباهها في كل شيء، بتّ أفطر على حبات من الفراولة وكوب من الحليب، لا أتناول في غدائي إلا الخضروات المسلوقة.. ولا آكل شيئاً طبخ بغير زيت الزيتون.. ومع هذا أنا مثلها، لا أزال أدخن بشراهة، وأحتسي كأساً من الخمر كل ليلة قبل أن أنام!.. وأحاول أن أستوعب كل هذا الكم من الجنون والتناقض الذي تعيشه وتقحمني فيه رغماً عني!..

.. اتصل بي رئيس التحرير (شخصياً)!.. ذلك العجوز الذي لولاه، لما كنت أنا هذا الرجل!.. "لما كنت هذا الرجل الذي تجهله" بطبيعة الحال!..

قال لي بصوت يملأه الغضب: ما أمرك يا رجل!.. أعدت إلى حياة الصعاليك؟!..

ـ لطالما كنت صعلوكاً يا سيدي!..

ـ وما حكاية سيدي هذه؟!.. ألست من يتشدق دوماً بأنه لا سيد له!..

ـ صدقني يا جهاد إن كان لي سيّدٌ فلن يكون سواك!..

سألني بصوت قلق: ما أمرك يا هذام؟!.. أتحتضر؟

ـ فلتخبرني أولاً، لماذا تتصل شخصياً بصعلوك مثلي؟!..

ـ توقفك عن الكتابة يقلقني!.. أجفّ مدادك فجأة!..

ـ بل جفّ دمي يا جهاد!..

ـ أقلقتني يا رجل!.. فلتقابلني في المقهى المقابل لمبنى الجريدة بعد ساعة!..

ـ سأكون هناك!..

وذهبت! وجدته بانتظاري.. يقرع قدمه على الأرض بسرعة كما هي عادته حينما يتوتر..

قال لي بصوته الأجشّ: أحكِ لي يا ملعون!.. ماذا حدث؟

سألته وأنا أناوله سيجارة: أخبرني أنت، كيف تتحمل زوجتك ألفاظك البذيئة هذه؟!..

ـ لا أعلم !، أظن بأن النساء يحببن البذاءة!..

سألته مازحاً: أتحبها مادلين؟!..

ـ صدقني لست أعرف ما تحبه زوجتي وما لا تحبه!.. زوجتي امرأة لا يُفهم منها شيء قط!..

ـ أظن بأنها ضريبة أن يتزوج المرء يا جهاد..

ـ المهم!.. دعك من مادلين الآن وأخبرني.. لأول مرة تناقش معي ما يحببنه النساء وما لا يحببنه!.. ما أمرك يا رجل!.. أوقعت أخيراً في امرأة؟!..

ـ أظن بأنني أدمنتها!..

ـ أي لعينة هذه التي أوقعتك يا رجل؟!..

ـ لست أدري يا جهاد!.. صدقني لست أدري!.. هي امرأة دنيا!.. فيها من الحياة كل شيء.. لكني لا أعرف عن هذه الحياة شيئاً!..

سألني بدهشة: ألا تعرف اسمها؟!..

ـ لا أعرف شيئاً عنها!..

ـ وكيف يعقل ذلك؟!

ـ غريب، هاه؟!..

ـ وكيف ذلك؟..

ـ حدثتها، سمعتها.. عاشرتها.. وسكنت معي لأيام

في بيتي الشتوي، لكنني لا أعرف عنها شيئاً يا جهاد ولا تعرف عني شيئاً!.. صدقني لا نعرف عن بعضنا شيئاً..

ـ أي جنون هذا؟!..

ـ بل قل أي قدر هذا!..

ـ من غير المنطقي أن لا تكون تعرفك.. أنت أشهر كاتب عمود في الصحافة العربية.. أي حمقاء هذه التي تجهلك؟!..

ـ أتدري يا جهاد ما الغريب في الأمر؟!.. حينما تكون هذه المرأة بجواري.. أشعر بعبق الأدب!.. في صوتها المبحوح قصائد مكبوتة.. وفي عروق يديها تسري الكلمات.. حينما تتحدث، تنطق لحناً.. وحينما تصمت، تصمت بخيلاء الملكات.. هذه المرأة مستحيلة يا جهاد!.. مستحيلة!.. أتدري، أشك أحياناً بوجودها فعلاً.. يخيل إليّ أحياناً بأنني أتوهّم وجودها!.. أكاد أجنّ يا جهاد!.. لا أدري إن كانت هذه المرأة موجودة فعلاً أم أنني من اختلق وجودها!..

كان العجوز ينظر إلي بتركيز، مسنداً ذقنه إلى راحة يده، فقال من دون أن يرمش: ما الذي فعلته بك هذه المرأة يا رجل؟!.. لأول مرة أراك ترتجف!..

ـ أخشى أن لا تكون حقيقية يا جهاد!.. أخشى أن يكون الأمر محض جنون!..

ـ هوِّن عليك يا رجل!.. أخبرني.. ألديك رقم هاتفها؟!..

ـ لا أعرف لها رقم هاتف ولا عنوان بيت أو عمل!..

ـ وكيف تلتقيان؟!..

ـ نلتقي مصادفة!.... إما أن تكون في المقهى.. أو في المكتبة العربية أو أمام مسرح الأوبرا.. إذا اشتقتها بحثت عنها في أحد هذه الأماكن.. وعادة ما أجدها في أحدها!..

نظر العجوز إلي ملياً ومن ثم قال بصوت هادئ: هذام!.. لما لا تزور طبيباً..؟!..

ـ أرجوك يا جهاد!.. لا تفعل بي هذا!.. لا تزيدني شكاً..!..

ـ تقتلك الوحدة يا رجل.. الغربة قاسية.. ما بالك إن كان المرء منا وحيداً في أرض غريبة!..

وصمتَ، وصمتُّ بدوري طويلاً لأنني أدركت أن لا

أحد سيصدقني.. وبأنها ستظل وهماً حتى يلوح يقيناً، أو تقبل عليّ حقيقة..

***

هي لغز، لغز لا قدرة لأحد على فك شفرته أو حله.. لكنها عراقية !، هذا أمر لا قدرة لأحد أيضاً، على أن يقنعني بغيره وإن حاولت تمويه ذلك..

في أول مرة سمعت فيها صوت سيتا هاكوبيان في شقتي التي استأجرتها لنلتقي فيها، سألتها عن ذلك الصوت الرقيق، والذي كنت أستمع إليه لأول مرة في حياتي، فأجابتني بأنها مطربة عراقية قديمة!.. كنا متمددين فوق الأريكة.. نشرب "مشروبها الخاص والغريب"، الشاي الإنجليزي المضاف إليه شيء من ماء الورد وملعقة صغيرة من الزنجبيل!..

لم نكن ننظر إلى بعضنا بعضاً، كان كل واحد منا يحلّق مع أفكاره مرافقاً لصوت سيتا الدافئ.. أخذت تغني معها بصوت شهي..

زغيرة جنت وأنتا صغيرون..

حبنا عرفناه بنظرات العيون،

قالوا ترى ذولا يحبون،
من الصغر للمن يكبرون،
مثل نجمة والقمر،
كبر حبنا وازدهر،
لعيونك حبيبي تبتدي دروب السفر..

أسندت رأسي إلى فخذها وأنا أفكر... لقد كنّا عندما نتحدث، نتحدث بلغة عربية شبه فصحى.. لكننا حينما نثور في وجه بعضنا بعضاً، حينما نغضب أو حينما نكون في الفراش.. فإنَّ كلماتنا تخرج بالإنجليزية.. وكأننا نتنصل من عروبتنا في ثوراتنا!.. أتعمد أحياناً أن أتحدث بنجديتي!.. لكنها لا تقابلها إلا باللهجة البيضاء أو بالإنجليزية.. أو بلغة بيضاء لا تشير إلى مكان.. لكني أستشعر في أنفاسها بابل، أشم في رائحتها سومر، أرى في عينيها آكاد وأستطعم في ريقها آشور..!..

كل هذه الأمور كانت تخمينات، مجرد تخمينات.. لكنها بدأت بالتجلي أمامي، شيئاً فشيئاً.. اعتدت على أن يرافقني في "شقتنا" صوت سيتا هاكوبيان، لميعة توفيق.. زهور حسين.. سعدون جابر.. ناظم الغزالي

وإسماعيل فروجي... المكتبة التي ملأتها بالكتب تزينها دواوين السياب، وعبد الوهاب البياتي و معروف الرصافي ولميعة عباس عمارة ونازك الملائكة وبلند الحيدري وأحمد مطر وإبراهيم عوبديا..كل هذه العوامل تشير إلى أنها عراقية في غاية الكلاسيكية..!..

سألتها مرة بينما كانت سيتا تشدو كعادتها، وأنا أشير إلى المكتبة : أليس بغريب أن يجمع وطنٌ واحدٌ كلَّ هؤلاء..؟!..

ـ أجابت ببرود: وما الغريب في ذلك..؟!..

ـ إنهم سنَّة، وشيعة.. أرمن.. أكراد، عرب، صابئة ويهود ومسيحيون..!..

ـ في داخل كل إنسان وطن خاص به!.. الإنسان لا ينتمي إلى رقعة.. الإنسان ينتمي إلى دواخله..

ـ لدواخله فقط؟

ـ أنا وأنت لا ننتمي إلا إلى دواخلنا فقط..

ـ أتدرين بأن صلاتك غريبة؟!..

ـ أَمِنَ الغريب أن أصلّي؟!..

ـ بل صلاتك ذاتها غريبة، طقوس صلاتك..

طريقتها.. كيفيتها.. كلها غريبة!.. لم أرَ أحداً يصلّي بطقوسك هذه!..

ـ قالت بسخرية: أنا على يقين من أنك لم تفعل!..

ـ سألتها: صلاتك تؤكد بأنك مسلمة، لكنك لا تصلّين كالسنّة ولا كالشيعة.. إلى أي مذهب إسلامي تنتمين؟!..

ـ ألم أقل لك بأننا جميعاً ننتمي إلى دواخلنا؟!..

ـ يقال بأن الدين هو طريقنا إلى دواخلنا!..

ـ ظننتك لا تؤمن بالأديان!..

ـ قلت بأنه يقال، لم أقل إنني أؤمن بهذا..

أشعلت سيجارة وأخذت نفساً طويلاً، سألتني: أتظن بأن الحب خطيئة؟!..

ـ واسيني الأعرج أفتى بأن "الحب هو المعصية الوحيدة التي يغضّ الله عنها الطرف".. وأنا أؤيد هذه الفتوى..

ـ أيؤخذ بفتاوى الأدباء؟!..

ـ أنا شخصياً لا أعمل إلا بفتواهم!..

ـ قل لي، لماذا أنت غاضب من الدين ومن القانون؟

ـ لأن بقاياهما لا تزال في نفسي، لكنني حينما

التقيتك تغير كل شيء.. انطفأ غضبي، وكأنك غمستني في نهر البيدخ فخرجت منه وكأني لم أؤذِ يوماً..

ـ أفعلت بك هذا؟!..

ـ بل خلقتني من جديد، عمَّدتني في ماء بلا دين.. طهَّرتني من بقايا الأديان العالقة في نفسي، جعلت مني رجلاً دينه أنت ولا دين له سواك..!..

ـ ألم نتفق على أننا لا ننتمي إلا إلى أنفسنا فقط؟

ـ الانتماء !، أخبريني أنت.. ماذا يمنحنا الانتماء..؟!..

ـ أظن بأنه يخلق لدينا "أحياناً " مساحة صغيرة من الأمان..

ـ الانتماء إلى الأوطان، الأديان، العشائر، العائلات، القوانين.. ليس سوى قيد يقيدنا.. قيد يجعل حياتنا أصعب وأكثر تعقيداً..

ـ ألم تقل بأنني أصبحت دينك..؟!.. أنت بهذا تنتمي إلي!.. أتلعن انتماءك إليّ..؟!..

ـ بل ألعن كل انتماء لسواك..!..

ـ قالت مبتسمة: أتدرك كم تجيد الحديث يا رجل..؟!..

ـ أتدركين كم تفتحين شهيتي على الحديث؟!..

ابتسمت هي، أما أنا فقد ضعت في تفاصيل الابتسامة!..

***

حينما جئت إلى لندن قبل قرابة التسعة عشر عاماً.. جئتها هارباً من كل شيء.. من أن يشارك عشرات الأشخاص في صنع قراري رغماً عني... غادرت الرياض في قمة الغليان السياسي والعسكري.. أثناء حرب الخليج وقبل تحرير الكويت بقرابة الشهرين، شعرت وقتذاك بأن القومية والقبلية والدين ما هي إلا أكاذيب، أنا الذي كنت قومياً حتى النخاع..!.. والذي قضى قرابة ربع قرن من حياته مؤمناً بها.. كنت شاباً في السادسة والعشرين.. أخطي خطواتي الأولى والخجولة في عالم الكتابة، بعد حصولي على شهادة الماجستير في الصحافة والإعلام.. كنت وقتذاك ممتلئاً جداً بالحب لكل شيء ولكل الناس، كنت وفياً جداً لوطني، فخوراً بديني، متعصباً لجذوري العائلية وللقبيلة، كنت الابن

البار لكبار العائلة.. كنت باختصار النموذج المثالي للشاب السعودي المتعلم والمتدين والمتمسك بالعادات والتقاليد.. حتى تعرفت على ليلى..

ليلى كانت زميلتي في الصحيفة، من رعيل الصحفيات الأوائل في السعودية.. كانت فكرة أن تمارس المرأة الصحافة في ذلك الحين خطيئة يعاقب عليها المجتمع بكل ما يمكن أن تعاقب به امرأة في مجتمع كذاك الذي كان عليه!.. لم تكن تصغرني ليلى بكثير، كنت أكبرها بثلاثة أعوام فقط.. لكن أن تواجه فتاة في الثالثة والعشرين مجتمعاً ذكورياً متزمتاً كالمجتمع السعودي كان برأيي محاولة انتحار ـ ناجحة ـ!.. لكن ذلك لم يمنع ليلى من أن تقاتل من أجل الحرية ببسالة لا تتوقع من فتاة سعودية في زمن كذاك..

مرور ليلى لم يكن في حياتي عادياً، أعرف اليوم بأن لقاءنا قد غير مجرى حياتي كلياً.. معرفتي بها أدت إلى أن أكون ذلك الشخص الذي أصبحته الآن، الاصطدام الذي حدث بيننا منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها في أحد أروقة الصحيفة أدى إلى أن تنقلب مبادئي وقناعاتي

رأساً على عقب، وإن كنت قد قاومت ذلك الانقلاب كثيراً..

ليلى كانت نابضة بالحياة، لم تكن كأي فتاة.. كانت مختلفة بكل المقاييس.. لم يكن جمالها صارخاً، لكنها كانت شهية بعفويتها التي "سلبت" قلبي منذ حوارنا الأول والذي لا أزال أذكره بتفاصيله الصغيرة.. كنت يومها متوجهاً إلى خارج مبنى الصحيفة حينما صادفتها في الممر المؤدي إلى الخروج... أذكر بأنني استغربت من تواجد فتاة في المبنى.. كانت محجبة فقط، لم تكن تغطي وجهها الصغير، وقد كان هذا أمراً نادر الحدوث في ذلك الوقت ـ إن استثنينا المجندات الأمريكيات ـ بطبيعة الحال..

استوقفتني ليلى أثناء مروري بها، قالت لي مستفسرة: عفواً !، هل أنت هذام العاصم؟!..

ـ أجبتها مندهشاً: نعم!.. أنا هو..

ـ قالت وهي تعدّل من نظارتها الطبية: تقريرك الأخير كان رائعاً..

ـ سألتها بدهشة: هل جئت من أجل التقرير الذي أعددته؟!..

ـ كلا بكل تأكيد، أنا ليلى زميلتكم الجديدة..

ـ زميلتنا الجديدة!..

ـ سألت بسخرية: غريب؟!..

ـ قلت لها بشيء من الإحراج: أنا لم أقل هذا!..

ـ قالت متهكمة: أجل أكيد حرام!..

ـ شعرت وقتها بأنني أنزّ عرقاً... قلت لها بارتباك من يتعامل مع المرأة لأول مرة: ما الذي تريدينه مني بالضبط يا أخت ليلى..؟!..

ـ لا تعاملني بعنصرية واستعلاء.. نحن زملاء هنا.. وتتساوى حقوقنا..

ـ وماذا أيضاً؟!..

ـ هزت كتفيها قائلة ببساطة: بقية الأمور تأتي لاحقاً!.. سنلتقي قريباً.. إلى اللقاء!..

وتركتني واقفاً أنظر إليها مشدوهاً، وهي تخطو بخطوات أدرك اليوم بأنها لم تكن عشوائية أبداً..!..

لقائي الأول بليلى لم يكن صدامياً بالمعنى المعروف.. لأنني لم أجادلها يوم ذاك على الرغم من هجوميتها التي قابلتني بها.. شيء ما أنبأني بأن هذه الفتاة ستترك في حياتي أثراً لا ينسى، لذا حينما قابلتها

لاحقاً في أحد الاجتماعات مع رئاسة التحرير لم أتمكن من أن أعاملها إلا بالكثير من اللطف والإصغاء ومحاولات التفهم!، كانت الصحفية الأولى والوحيدة التي تعمل في جريدتنا، وكان وجودها محل استهجان من كل العاملين على الرغم من تقاريرها المميزة، وعلى الرغم من أنها لم تكن تلك الفتاة الضعيفة، إلا أنني شعرت بأنها بحاجة لمن يساند حقها في المشاركة بالحياة قبل العمل الصحفي.. فدافعت عنها في اجتماعنا الأول حينما أشار أحد زملائنا بصورة غير مباشرة إلى أن المرأة التي تغادر منزلها لتزاحم الرجال في أعمالهم لن تكون إلا امرأة من اثنتين، فإما أن تكون ساقطة، وإما أن تكون مسترجلة والعياذ بالله!..

أذكر بأنني قاطعته بأن: كل إناء بما فيه ينضح!.. وبأننا نحكم على الآخرين بناءً على أخلاقيتنا..

ومع أن ما قلته قد كلّفني الكثير من الصداقات، حيث خسرت يومها موالاة الكثير من زملائي الذين رأوا فيَّ رجلاً شهوانياً يهاجم زميله دفاعاً عن ساقطة!، إلا أنني كسبت ليلى ونفسي يوم ذاك.. يوم ذاك أدركت بأن المرأة في بلادي محاربة من دون وجه حق.. فأخذت

على عاتقي مسؤولية مساندتها في الحصول على حقوقها أو عدم المشاركة في محاولات قمعها على أقل تقدير، وقد كان ذلك برأيي أضعف الإيمان!..

قالت لي ليلى بعد انتهاء الاجتماع وحين مغادرتنا: شكراً للدعم يا هذام، يجي منك والله!..

شعرت حينها بالدماء تتفجر في وجهي خجلاً، قلت لها: أنا لم أدافع عنك بعينك، كان دفاعي عن المرأة على وجه العموم!..

- صدقني لو كان دفاعك عني لما أسعدني!.. ما أسعدني حقاً هو أن تثور لأجل المستضعفات.. وهذه إشارة جيدة فعلاً..

ولا أدري فعلاً لما بررت لها دفاعي عنها وقتذاك، ولما تنصّلتْ هي من سعادتها بدفاعي عنها.. أظن بأننا خفنا من أن يبرر هذا داخل أعماقنا عاطفياً. من جهتي، ظننت بأن هذا سيشعرني بسوء مبتغاي الذي لم يكن له وجود حينذاك، وأظن بأنها خافت من أن أفسر سعادتها بدفاعي عنها كما يفسر رجالنا عادة مشاعر النساء.. ففي مجتمعنا كل امرأة ساقطة حتى تثبت العكس..

لم ألتق بليلى كثيراً بعد اجتماعنا الأول، لكني كنت

أطّلع على التقارير التي كانت تعدها، والتي كانت تُرفض كمادة للنشر في أغلبها نظراً لجرأة الطرح والمواضيع... لم يكن من السهل على أحد منا أن ينكر مدى عبقرية ليلى وتميزها ـ بينه وبين نفسه على الأقل ـ!، كانت ليلى تجيد ممارسة الصحافة بفطرتها.. كانت ذكية، مجتهدة، نشيطة، لماحة وتجيد متابعة الخبر ونشره..

بدأت ليلى تستعمرني فكرياً، بدأت قراءاتي تتغير، وشيئاً فشيئاً بدأت أفكاري القديمة تنهار تحت وطأة التغيير... أصبحت أتعاطف مع النساء، وبدأت رحلتي الطويلة في البحث عن الحب، الإنسان، الإيمان والوجود..

بسبب ليلى تغيرت قناعاتي كلياً وتبدلت مفاهيم الحياة لدي.. صدمني كثيراً أنني كنت، لأكثر من ستة وعشرين عاماً، رجلاً سطحي التفكير، على الرغم من شهاداتي الجامعية المتقدمة، إلا أنني كنت رجلاً تقليدياً بسيطاً يحكم على الأمور من خلال رؤيته السطحية لها..

في تلك الفترة، بدأت أتوغل في عالم الفلسفة.. فتعرفت في البداية على أرسطو، هيغل.. أفلاطون

وسقراط.. لم يكن من السهل عليّ في ذلك الوقت الحصول على كتب عن غيرهم من الفلاسفة في الرياض التي كانت تكفر المهتمّين بالفلسفة... كذلك لم يكن في محيطي من يهتم بالفلسفة بتاتاً، لذا سألت ليلى في اجتماعنا الثاني إن كانت تعرف من أين أحصل على تلك النوعية من الكتب.. كانت سعادة ليلى غامرة بسؤالي!.. أظن بأنها عوّلت على سؤالي كثيراً.... فزودتني بعدها بيومين بمجموعة كبيرة من الكتب.. ومن هنا بدأ مشوار الانعتاق، ومرحلة التسامي.. وبدأت علاقتي بليلى تأخذ منحى آخر..

***

بدأت علاقتنا في أبريل 1990م قبل الحرب التي اندلعت فجأة، والتي شوهت القومية في داخلي مثلما عززتها لدى كثيرين... كانت قناعاتي قد بدأت بالاهتزاز منذ أن تعرفت على ليلى، وجاءت الحرب فتزلزل كل شيء في أعماقي.. وانقلب كل قديم رأساً على عقب..

لم تكن ليلى مختلفة عني فحسب بل كانت متحررة

من كل شيء عدا إنسانيتها.. لم يكبّلها أي قيد، كانت حرة.. حرة تماماً.. وقد أذهلني هذا التحرر، فاعتنقته ولم أعتنق شيئاً من بعده..

أعرف اليوم بأن المرأة هي طريق الرجل إلى الحرية، وحدها المرأة قادرة على أن تحررنا من عبوديتنا.. على الرغم من أنها وحدها أيضاً من يقدر على أن يستعبدنا.. هذه هي معادلة الحياة المعقدة التي لن يقدر أحد على حلّها.. المرأة هي لغز الحياة، سرّها.. ومأزقها الأصعب الذي لا يفهم!..

كنت أقضي ساعات طوالاً على الهاتف مع ليلى التي كانت تملك خطاً هاتفياً خاصاً بغرفتها، ولم يكن هذا الأمر عادياً وقتذاك... فأنا نفسي كنت أستخدم الخط الهاتفي الخاص بمنزل عائلتي والذي كان يتشارك فيه قرابة السبعة أفراد!..

لم تكن علاقتنا علاقة تقليدية، لم تكن كأي علاقة بين رجل وامرأة في مجتمع كمجتمعنا، لم تجمعنا الشهوة ولا الحب في البداية.. الحياة هي التي جمعتنا، تساؤلاتنا.. شكوكنا.. أحلامنا.. ومحاولة الوصول إلى يقين ما في هذه الحياة!.. إلا أنني أحببتها كثيراً..

كنت أشعر بأنني أغرق في بحرها تدريجياً يوماً بعد يوم.. حواراً تلو الآخر.. لم يكن من الصعب على امرأة كليلى أن تُغرق رجلاً مثلي حتى شعر رأسه..

مع مضي سنوات على افتراقنا، وعلى الرغم من مرور الكثيرات في حياتي خلال قرابة العقدين، إلا أنني أكاد لا أذكر سوى أسماء من عرفتهن فقط.. ما عدا ليلى!.. ليلى هي التي لم أنسَ شيئاً يخصّها.. ولا أدري حتى الآن إن كنت أذكر تفاصيلها لأنها كانت فعلاً استثنائية أو لأنها كانت المرأة الأولى في حياتي... وعادة، الرجل لا ينسى امرأته الأولى مهما مرّ في حياته من نساء..

ظللنا أنا وليلى على علاقـة حتى سبتمبر من العام ذاته... كان قد مضى على علاقتنا قرابة الستة أشهر، وقد كانت كافية بالنسبة لي لأن أقرر الارتباط بها.. ظننت في البداية بأنها ستقاوم فكرة الزواج هذه لفترة، إلا أنها أيَّدتها تماماً وسعدت بها كثيراً.. فشعرت وقتذاك بأنني امتلكت الدنيا، بأنني اجتزت الحياة، ولم أكن أعرف بأن فكرة الزواج تلك كانت مأزق حياتي الأكبر الذي لم أخرج منه يوماً..

بعض الأحداث والحوادث التي نمرّ فيها تعيد تشكيل حيواتنا من جديد، نشعر بعدها وكأننا ولدنا أشخاصاً آخرين، أشخاصاً لم يعودوا يشبهون أنفسهم!.. وقد كانت ليلى حادث العمر الأشنع الذي خلّف في روحي ندوباً لم تمحَ حتى الآن..

لا أدري كيف غاب عن ذهني كلياً اسم ليلى الأخير، أنا القبلي جداً والمتعصب للقبيلة أكثر من أي رجل آخر!، لم أفكر في اسم عائلتها ولا عن إمكانية أن تقترن أسماؤنا الأخيرة.. ولا أدري كيف حدث هذا!.. أظن بأننا نفقد في الحب القدرة على تمييز الأسماء، فلا نذكر ولا نكترث إلا لأسمائنا الأولى.. وأعرف اليوم بأنني قد دفعت ثمن هذا النسيان وطناً وعائلة وعقدين من الزمن..

لم تكن ليلى تناسبني "قبائلياً".. وقضية القبائلية هذه هي المأزق العاطفي الأكبر الذي لن يتمكن أحد من الخلاص منه إن وقع فيه.. هذه القضية لا حل لها مهما أمطرت السماء من معجزات.. لكن الحب يجعلنا نتمسك بسراب الإمكانية، بوهم المعجزة.. الحب يجعلنا نتأمل حتى نموت أملاً وألماً، ولم تستثنني السماء من

هذا الألم لأنني لم أنفكّ عن الأمل في أن تحدث معجزة..

لم يكن صدامي بعائلتي عادياً، لم يمر عليَّ ولا عليهم مرور الكرام.. في حياة كل فرد منا قشَّة تقصم ظهر البعير.. لكن خلافي مع عائلتي لم يكن كذلك، لأنه لم تكن لدي سوابق خلافية مع أحد منهم... كانت ليلى طلبي الوحيد، كانت الطلب الأول والأخير الذي لم يتحقق، فثرت كما لم يفعل أحد.. قاومت العائلة والقبيلة وأقرب الناس إلي حتى تجاوزنا مرحلة الخلاف إلى مرحلة اللا عودة!.. وصلنا إلى مرحلة أن أختار.. فإما هم وإما هي..!.. وما أقسى أن تختار بين من تحب ومن تحب، لكنني اخترتها صدقاً وبكل اقتناع.. وتخليت عن كل ما يربطني بعائلتي التي توحّشت.. توحّشت جداً عليّ!.. لكن هذا لم يشفع لي عند عائلتها.. لم يقبل والدها بأن يضع ابنته في هذا الجحيم الذي كنت أدرك أيضاً بأنه لن ينقضي يوماً ما، ولا قدرة لأحد على أن يقف في وجه قبيلة ثائرة مهما تدرّع ومهما احترز ومهما دعم..

لا أزال أذكر الليلة التي تحدثنا فيها أنا وليلى لآخر

مرة في هذا الموضوع، قالت لي: إسمع يا هذام!.. أنا على استعداد لأن أقنع أهلي بزواجنا، لكنني أحتاج لأن تؤكد لي التزامك معي.. إن كنت تشعر بأنك ستنهزم في اللحظات الأخيرة فلا تضعني في هذا الحرج، لأنني لن أسامحك على هذا ما حييت..

والحق بأنني خشيت كثيراً أن أفعل!.. على الرغم من كل الحب الذي كننته لليلى.. وعلى الرغم من تفاقم صراعي مع عائلتي إلى درجة أنني طُردت من المنزل وقوطعت حتى من والدي.. إلا أنني كنت أشعر في أعماقي بأنني سأجبن!.. شيء ما أشعرني بأنني غير قادر على أن أتجرد منهم.. كنت أضعف بكثير من أن أقاوم حملة كتلك التي شنّت عليّ.. كنت يافعاً، قليل التجارب، مسالماً.. ولم تكن الحياة قد لاكتني بعد..

خشيت على ليلى كثيراً، خفت عليها من تلك الحرب.. كانت لها أحلامها وكان بانتظارها مستقبل باهر فخشيت أن تعرقل حياتها بسببي، لذا رضيت بأن أتنازل عن سعادتي وأن أتخلى عنها مكرهاً.. ولم يكن في الإكراه أي عزاء.. لا لي ولا لها..

أدرك جيداً بأن تركي لليلى لم يشفع لي كثيراً عند

عائلتي، لكنهم حاولوا أن يدّعوا ذلك حتى لا يخسروني، فتعاودني فكرة الزواج السابقة.. كنت أدرك بأن احتضانهم لي مجدداً ما هو إلا محاولة منهم لتخدير رغبتي بالزواج من ليلى، باتوا يعاملونني وكأنه لم يخلق لهم غيري!.. وقد كانت تلك المحاولات تجلب لي الكثير من مشاعر الازدراء تجاههم.. بتُّ أشعر بزيف مشاعرهم.. شعرت وكأن شيئاً أنكسر بيننا، وكنت أعرف بأنه لا قدرة لشيء على إصلاحه من جديد..

طلبت مني ليلى أن أتناسى ما حدث، وأن نتعامل مع بعضنا كصديقين.. إلا أنني أخذت إجازة من عملي لمدة شهر وانقطعت عنها تماماً.. لم أكن قادراً على أن أكلمها أو أن أراها.. لم أتمكن من أن أتجاهل ما حدث، ولا أن أفهم كيف يتوقع من رجل أن يقدر على مصادقة امرأة اشتهاها يوماً!..

كنت في حالة لوعة، لازمت البيت ولم أتمكن من مغادرته خلال فترة الإجازة... كنت أفكر فيما ستكون عليه الحياة من دون ليلى.. كيف سأتجنب رؤيتها.. وكيف سأمضي في حياتي بعيداً عنها.. كانت تطرح في

رأسي مئات الأسئلة، ولم تكن هناك أجوبة عليها.. فأرّقتني وزادتني لوعة.. حتى اتصلت ليلى عليّ!..

كان اتصالها الأخير، في الخامس من نوفمبر 1990 م.. وقد كانت الساعة تقارب الرابعة فجراً.. فجعني صوت الهاتف.. لكنني أدركت بحدس العاشق أنها هي!.. فركضت إليه بخطوات ترتجف وبقلب يلهث..

- قالت لي بصوت حذر : هذام!.. أنا ليلى..

- أجبتها بصوت بحّ من الغصة: وهل ظننت بأنني قادر على نسيان صوتك..؟!..

- هذام دعك من هذا الحديث!.. أحتاج لأن تسديني معروفاً!..

- كلّي لك..

- لا بد من أن تعرف بأن ما سأقوله لك في منتهى السرية والخطورة!..

- قلت لها بتوجس وبدهشة: أنا منصت!..

- أريدك أن تعدني في البداية أن لا يتجاوز هذا الحديث أحداً غيرنا يا هذام!..

- قلت لها وقد بدأ القلق يتسرب إليّ: لست بحاجة إلى هذا الوعد يا ليلى، لكنني أعدك بهذا!..

ـ زفرت بقوة: حسناً!.. إسمعني جيداً يا هذام.. "ركّز" معي!.. لأنني أحتاج إلى تركيزك التام..

ـ حسناً!..

ـ سنخرج غداً في مظاهرة نسائية، سيشارك فيها عشرات النساء من الأكاديميات والطالبات وربات البيوت.. ونحتاج إليك في هذه المظاهرة..

ـ قلت لها بدهشة: ماذا تعنين بمظاهرة هنا؟!..

ـ مظاهرة سلمية، نطالب من خلالها بحقنا في القيادة!..

ـ قيادة ماذا؟!..

ـ قيادة السيارة..

ـ لم أفهم!..

ـ سنقود سياراتنا يا هذام، ونحتاج لأن تصور لنا هذا الحدث..

ـ لابد من أنك تمزحين !!..

ـ وهل في هذا الأمر هزل؟!..

ـ أتدركين ما أنت مقدمة عليه؟!.. أتدركين ما قد يكلفك أن أقدمت على هذا الأمر..؟!..

ـ لا حرية بلا ثورة يا هذام..

ـ هذه ليست ثورة، هذا انتحار..

ـ قالت ساخرة: فلنقل بأنه استشهاد!..

ـ لا يا ليلى، أرجوك لا تفعلي هذا.. أنت لا تدركين ما قد يصيبك نتيجة لهذا الجنون..

ـ لا قدرة لي على الانزواء جبناً كما فعلت أنت يا هذام!.. أنا امرأة قادرة على أن تناضل من أجل حقوقها ومن أجل حريتها.. ومستعدة لأن أدفع ثمن هذا..!..

ـ قلت لها باستسلام: وما الذي تريدينه مني يا ليلى..؟!..

ـ أحتاج إلى مساعدتك يا هذام.. نحتاج لأن يسجل أحد هذا الحدث بكاميرا الفيديو.. ولا ثقة لي بأحد غيرك.. أخشى أن تطلب أي واحدة منا هذا من أي رجل آخر، فيتسرب الخبر قبل بدء المظاهرة ونمنع من القيام بها..

ـ وهل ظننت بأنكن لن تمنعن من ذلك؟!..

ـ سنمنع من إكمالها، لكننا لن نمنع من بدئها إن ساعدتنا في هذا!..

ـ قلت لها وأنا أنزّ عرقاً: أسأكون الرجل الوحيد المشارك؟!..

ـ أولاً، أنت لن تشارك، أنت ستسجل المسيرة فقط.. ثانياً.. الكثيرون من أزواج المشاركات سيتبعونهن بسياراتهم، لذلك، لا تخشَ شيئاً..

ـ قلت لها بانفعال: هذا مخالف للقانون يا ليلى!.. أنت لا تدركين ما قد يترتب على هذه المظاهرة..

ـ قالت بحزم: هذام.. لقد طلبت منك معروفاً فإما أن تسديني إياه، وإما أن تنسى الموضوع تماماً، وكأننا لم نتطرق إليه أبداً، وأن لا تفاتح به أحداً كما وعدتني..

صمتُّ قليلاً، كنت أثناءها أفكر بليلى.. بهذه الشجاعة التي تخليت عنها ضعفاً وخوفاً.. كنت أفكر في ثورتها، في جرأتها.. في محاولتها لتحقيق أهدافها مهما كلفها الأمر.. كانت ليلى نقيضي المقدام الذي كنت أدرك بأنني لن أشابهه يوماً..

ـ قلت لها وقد جزمت أمري: فليكن.. سأفعل هذا من أجلك..

ـ هذام، لا بد من أن تعرف بأن المظاهرة سلمية، لكنها قد تنتج عن غير ذلك!.. لا أحد منا يعرف ما قد يحدث غداً..

ـ المهم أن تدركي أنت ذلك يا ليلى..

ـ أدركه جيداً، لذا أخبرك بهذا..

ـ حسناً يا ليلى، سنقدم على هذا معاً.. سأقوم بالتصوير من أجلك..

ـ بل من أجل مجتمعك يا هذام، من أجل المساواة.. من أجل شقيقاتك ووالدتك وبناتك اللاتي سيجئنَ يوماً..

ـ بل من أجلك يا ليلى، تذكري دوماً بأنني فعلت هذا من أجلك..

لم أنم ليلتها، كنت أدرك بأن السادس من نوفمبر قد يغير من سير حياتي، قد يزيدها تعقيداً، وقد ينهيها!.. لكنني حاولت طرد تلك الأفكار من رأسي لأن رغبتي الحادة في أن أقوم بأي شيء لليلى كانت أقوى من مشاعر الخوف والتردد أو أي مشاعر أخرى..

أعددت كاميرا التسجيل، شحنتها بالكهرباء.. وظللت أفكر طوال الليل فيما سيكون عليه الغد.. كنت مشحوناً بالمشاعر حتى آخري، كان هاجسي الأول هو ليلى.. خشيت عليها أكثر مما خشيت على نفسي، كنت أفكر

فيما سيلحقها وفيما سيؤدي إليه جنونها..!.. لم أكن أعرف عما هو مخطط له.. كل ما عرفته أنني سأتبع ليلى بسيارتي وبأن نقطة لقائهنّ ستكون في الملز.. كنت أدرك تماماً بأن الحدث ضرب من ضروب الانتحار الاجتماعي الذي بدا لي بأن ليلى لم تستوعبه كما ينبغي!.. لكنني وعلى الرغم من ذلك، ومع إدراكي التام بأن تصوير المظاهرة سيؤدي إلى ما لا يحمد عقباه.. وبأنه سيطولني ما لن يطول الفتيات "أمنياً" لأنني الرجل بينهن!.. إلا أن ذلك لم يجعلني أتوانى عن أن أتوجه إلى بيت ليلى في الوقت الذي اتفقنا عليه..

توجهت إلى بيتها متسلحاً بحبي لها وبكاميرتي المتواضعة، مدفوعاً برغبة ماسّة للتعويض، لتعويضها!..

فأنا أدرك اليوم بأنني لم أفعل شيئاً مما فعلته إلا لأن مشاعر التأنيب كانت تنهشني كنت أظن بأن إقدامي على تلك "الحماقة" ستشفع لي عند ليلى، وستمحو لديها ذنب جبني.. فأتخلص من ذنب خذلانها بمساعدتي لها..

أوقفت سيارتي أمام بيت ليلى، كنت أرتجف انفعالاً.. مرّ كل شيء بسرعة خارقة منذ اتصالها بي

وحتى وصولي إلى بيتها وكأنني في حلم سريع لا قدرة لأحد على استيعابه إلا بعد انتهائه!..

انتفضت حينما رأيت ليلى خارجة من منزلها مع فتاة أخرى، رأتني وأشارت لرفيقتها بأن تركب السيارة وأقبلت عليّ، ترجلت من سيارتي ما إن اقتربت.. بادرتني قائلة: ها قد جئت يا هذام!..

ـ وهل ظننت بأنني لن أجيء؟!..

ـ الحق بأنني ظننت هذا.. تاريخك معي لم ينبئني بمجيئك!..

ـ أرجو أن يعوّضك هذا عن بعض مما حدث..

صمتت قليلاً، ومن ثم مدّت يدها ممسكة بذراعي قائلة: شكراً هذام..!.. أقدِّر لك هذا!..

حينما جلست ليلى خلف مقود السيارة، شعرت بأن قلبي يكاد أن يقف.. تقافزت في رأسي آلاف الوجوه الملتحية وهراواتهم والمئات من أصفاد رجال الأمن.. كشَّر القانون عن أنيابه في ذهني فشعرت بشجاعتي تتضاءل وتتضاءل وتتضاءل..

كان المشهد جنونياً!.. رؤية سيارات الفتيات وهي تنضم إلى الرّكب سيارة خلف أخرى كان مهيباً.. وجوه

الركاب المذهولة في السيارات العابرة زادتني رعباً.. رأيت أمامي إحدى السيارات الممتلئة بالشباب وهم يحاولون مضايقة الفتيات وإرغامهنّ على إيقاف السيارة والنزول منها.. حينها وحينها فقط.. أدركت بأن الأمور ستزداد سوءاً وبأنها لن تنتهي على خير!..

حاولت أن أدير الكاميرا بيد ترتجف، إلا أن رؤية سيارات الشرطة جعلتني أخبئها تحت مقعدي.. أحاطت سيارتان من سيارات الشرطة بموكب الفتيات، وقادوهنّ إلى مركز شرطة الحي..

تبعتهن حتى وصلنا إلى المركز، ورأيت الفتيات يترجلن من سياراتهن ويتجهن إلى داخل المبنى.. لم أكن أعلم ما يتوجب عليّ فعله!.. لم أكن قد تمكنت من تصوير المسيرة.. ودخولي خلف ليلى إلى المركز سيعني عشرات القضايا التي لا قدرة لأحد على تخمين عقوباتها ابتداءً من المشاركة بتنظيم مظاهرة مروراً بزعزعة الأمن وانتهاءً بمصاحبة فتاة غريبة!.. كما أن إيقافي للسيارة بالقرب من المركز لفترة طويلة كان سيثير الشبهات الأمنية.. فعدت إلى بيت ليلى بلا خطة

محددة.. وقفت أمام بيتها لأكثر من نصف ساعة مفكراً فيما سأفعل!..

استجمعت شجاعتي وقرعت الجرس.. ففتح لي والدها الباب.. كانت دهشته برؤيتي عارمة.. لكنني لم أمهله من الوقت شيئاً ليفكر في أسباب قدومي... قلت له بأن أحد المصادر الصحفية قد اتصل بي وأبلغني بوجود ليلى في مركز الشرطة لمشاركتها في مظاهرة نسائية مع العشرات من الفتيات.. لا أزال أذكر حتى اليوم ملامح وجه والدها الذي ظننت بأنه كان على دراية بما تخطط له ابنته التي نشأت في بيت متحرر وعائلة منفتحة إلى أقصى درجة!، لم أظن، ولو للحظة، بأنها أقدمت على المشاركة بالمظاهرة من دون علم عائلتها لأنني كنت أعرف تماماً بأنها لا تقدم على شيء من دون معرفتهم به.. حتى علاقتنا القصيرة كانوا يعرفون عن تفاصيلها منذ أيامها الأولى!..

كان والدها في حالة ذهول، ولم تزدني حالته تلك إلا ارتباكاً.. كنا أنا وهو ننظر إلى بعضنا بعضاً بقلة حيلة.. وهو يتساءل (كيف، متى.. أين.. لما لم تخبرني.. لماذا فعلت هذا.. ما العمل.. أين

نذهب..).. اقترحت عليه أن يتصل بأحد أخوتها الشباب.. وأن يتوجه معه إلى مركز الشرطة في أقرب وقت ممكن..

وعدت إلى البيت، أجرّ أذيال الخذلان مجدداً!..

كانت تلك الليلة، أطول ليلة مررت بها في حياتي.. حاولت الاتصال ببيت ليلى عدة مرات راجياً من الله أن تردّ عليه!.. لكن رنين هاتف بيتها لم يصمت، استمر صداه يتردد.. لم يسكت أبداً ولم يكن هناك من مجيب..

تسرب خبر المظاهرة كالنار في الهشيم، لم تمر ساعات حتى عرفت كل الرياض بما حدث.. وبدأت الأسماء بالتسرب اسماً اسماً في مدينة فضائحية تجيد تزييف الحقائق كما لا تفعل أي مدينة أخرى، أما أنا فقد كنت منزوياً في غرفتي أرقب الهاتف الممتد من صالة بيتنا وأنا أناجي الله أن تتصل بي وأن تمر الأزمة بأقل قدر من الخسائر!..

شعرت بقلبي يقفز حينما ارتفع رنين الهاتف، كان المتصل أحد زملائنا في الصحيفة.. طلب مني أن أطلع على قناة الـ CNN بسرعة، أغلقت معه، وفتحت على

القناة التي كانت تعرض بعض المشاهد من المظاهرة.. والتي لم أعرف وقتها كيف حصلت القناة عليها.. وعلمت بعد ذاك أن مصوراً عظيماً وشاعراً مبدعاً هو من تمكن من تصويرها ومن دفع ثمن ذلك لاحقاً..

الحق أن مشاهدة ما حدث مجدداً على شاشة التلفاز أكد لي بأن الحدث لن يمر مرور الكرام، خاصة وأن توقيته كان في منتهى الحساسية السياسية، حيث كانت كل الأنظار تتوجه إلى السعودية في ذلك الوقت!.. لذا قضيت ليلتي محاولاً تجميع أكبر قدر من المعلومات عن مصير الفتيات... استعنت بالكثير من الصحفيين ومن أصدقائي في وزارة الداخلية.. لكنني لم أصل إلى أي نتيجة لتضارب الأنباء..

ليلتها وليلتها فقط، بدأت أفكر في حياتي وفي مصيري جدياً!.. فكرت في الحياة التي أعيشها وفي المجتمع الذي يحيط بي رغماً عني، استرجعت خسائري الفادحة.. وأخذت أفكر بما سأخسره في قادم أيامي.. كنت أعرف بأن لا شيء ينتظرني في مجتمع كذاك المجتمع.. لا قدرة لأحد على أن يعيش حراً في تلك

البيئة المستعبدة اجتماعياً، مجتمعنا هو أكثر المجتمعات مازوشية.. يتلذذ بجلد نفسه.. يستمتع باستعباد أفراده لبعضهم بعضاً.. ولم أكن لأقبل بأن أكمل حياتي في تلك الأرض التي أعرف اليوم بأنها لم تحبني يوماً..

ليلتها، شعرت بأنني أفقد انتمائي لكل شيء.. للوطن الذي لم يحبني أبداً.. للعائلة التي قدمت رضا القبيلة على سعادتي، للقبيلة التي حرمتني من أن أرتبط بفتاتي التي أحب بعنجهية قصوى..

بقيت تلك الليلة مستيقظاً، بانتظار أن تجود عليّ ليلى بأي خبر.. لكنني لم أتلقَ ليلتها إلا مكالمات زملائنا من الصحفيين والذين كانوا يتسابقون لينقلوا لي خبر مشاركة زميلتهم المكروهة أصلاً والمحاربة من قبلهم!.. هبط خبر احتجاز ليلى على زملائنا كهدية من السماء، كانوا شامتين، يختلقون الأخبار كالنسوة الأميات.. ولم يكن للمصداقية في تلك الليلة أي حضور يذكر.. فازداد كرهي لكل ما يمتّ إلى مجتمعنا بصلة!.. كرهته حتى آخري..

انهار جسدي المكدود الذي لم يذق طعم النوم

لليلتين متواصلتين، فغفوت قليلاً.. كنت ما بين عالمين عندما اتصلت ليلى.. وقد كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً..

بادرتني بصوت مرهق: صباح الخير يا هذام..!..

صحت بها بصوت يكاد أن ينقطع تعباً: ليلى!.. أين أنت الآن.. وماذا فعلوا بك..؟!..

ـ أرجو أن لا تصرخ يا هذام حتى أجيب عن أسئلتك، فأنا لم أنم منذ ليلة البارحة ولا يزال الضجيج يملأ رأسي حتى يكاد أن ينفجر..

ـ أخبريني، أين أنت الآن..؟!..

ـ أنا في البيت يا هذام، لا تخشَ عليّ..

ـ أأنت بخير؟!..

ـ أنا بخير، لكنني مرهقة للغاية..

ـ ماذا فعلوا بكنّ؟!..

ـ لم يفعلوا شيئاً يا هذام، اتصلوا بأولياء أمورنا.. وجاءوا لاستلامنا.. وكأننا طفلات أو سفيهات!..

ـ أنا آسف لأنني جئت إلى والدك يا ليلى، لكن تفكيري لم يقدني إلا إلى هذا الحل!.. خشيت عليك كثيراً فوجدت نفسي أقرع باب بيتكم!..

ـ لا داعي لأن تعتذر يا هذام.. كان تصرفك صائباً.. وأصدقك القول بأنني ندمت كثيراً على عدم إخبار والدي بما كنت أنوي القيام به.. لكنني خشيت أن يمنعني من القيام بهذا.. ولم أفكر في موقفه عندما يكتشف أنني أقدمت على عمل علني من دون علمه وموافقته!.. فكرت في أن النتيجة تستحق المجازفة، وبأنني أضحّي من أجل نساء وطني..

ـ كنت أعرف بأنك ستندمين يا ليلى، لكني لم أشأ معارضتك..!..

ـ أنا لم أندم يا هذام على المشاركة في المظاهرة.. ولا أظن بأنني سأندم عليها.. أنا نادمة على أنني لم أصارح والدي بهذا الموضوع قبل التورط فيه.. كان من الواجب عليَّ مفاتحته بالأمر شأني شأن كل الفتيات اللاتي شاركن معنا يوم أمس..

ـ وماذا الآن؟!..

ـ أظن بأن باب الجحيم قد انفتح!.. ما حدث ليلة أمس هو البداية فقط يا هذام.. أدرك جيداً بأن الهيئة والإمارة ستصدران بعض الأحكام بحقنا..

ـ لو تدرين كم سيكلّفك هذا يا ليلى!..

ـ هذام.. دعك من هذا.. أصوّرت المسيرة؟!..

ـ قلت لها بارتباك: لم أتمكن من ذلك يا ليلى، أحاطت سيارات الشرطة بسيارتي فلم أتمكن من التصوير!

ـ قالت بخيبة: ولقد أحاطت سياراتهم بنا وقادونا إلى مركز الشرطة ولم نجزع يا هذام!..

ـ أنا لم أجزع يا ليلى، لكنني أدركت بأنه لا فائدة من تسجيل المظاهرة وأنا أعلم بأن الشرطة ستقبض عليّ وتتلف الأشرطة خاصة وأن سياراتهم كانت تحيط بي..!..

ـ متى تتحرر من حالة الجبن هذه يا هذام؟!.. صدّقني، لا معنى لحياتك إن كنت ستعيشها مكبلاً بالخوف والضعف والتقليدية!..

ـ أظن بأنني سأترك هذه البلاد بمن فيها يا ليلى.. لا قدرة لي على العيش فيها أكثر مما عشت..

ـ فلترحل يا هذام.. ارحل وابحث عن نفسك.. ولا تعد إلى هنا إلا بعد أن تصل إلى الحقيقة..

ـ أعدك بهذا ليلى، أعدك أن لا أعود إلا حراً..

ورحلت بعدها بثمانية أسابيع!.. راسلت إحدى الصحف العربية التي كانت تصدر في لندن، زوّدتهم بمقالاتي وبتقاريري الصحفية وبسيرة ذاتية لشاب يائس في عامه السادس والعشرين.. شاب يبحث عن انتماء راسخ، انتماء لا يهتز ولا يموت.. ولا يغتصب..

وجاءتني الموافقة على العمل في الصحيفة بعد أيام، فاستقلت من عملي.. وباشرت بإنهاء إجراءات السفر من دون أن أخبر عائلتي بقرار رحيلي.. وفي التاسع والعشرين من ديسمبر 1990م.. استقللت الطائرة المتوجهة إلى لندن.. وتركت كل شيء خلفي، عائلتي، وطني، الحروب الضروس.. وعرّابتي ليلى!.. رحلت يومها من دون أن أودّع أحداً أو ألتفت إلى شيء!..

رحلت وقد قررت أن أنتهي من كل ما مضى، ففي ديسمبر تنتهي كل الأحلام.. وفي يناير يبتدئ حلم جديد.. ففي يناير 1991م بدأت حياة جديدة لا تشابه حياتي السابقة بشيء!..

***

أنا رجل يناير حتى النخاع، رجل يمقت نهايات الأعوام ويعشق بداياتها.. رجل يحلّق نشوة في يناير وفبراير، وينزوي كآبة في نوفمبر وديسمبر من كل عام..

أظن بأنني لم أتجاوز نهاية 1990م حتى الآن... لا تزال الخيبة تملأ نفسي على الرغم من مضي عقدين مررت أثناءهما بمئات الخيبات!.. قد تكون ليلى امرأتي الأولى التي لن أنساها يوماً، لكن حبيبتي المجهولة التي جاءتني في فبراير 2009م هي حب عمري بلا جدال!.. ولا أعرف إن كان مجيئها في فبراير هو استحضار لقناعاتي السابقة، أم أن العشق فعلاً لا يولد إلا في فبراير الملتهب.. شهر العشاق..

لكن الكآبة بدأت تتسرب إلى نفسي مبكراً... أشعر بالخوف يخنقني أكثر فأكثر كلّما اقتربنا من نهاية العام، شيء ما ينبئني بأنها ستختفي في ديسمبر، كمدينة سحرية.. تعمر في ليلة وتختفي في أخرى!.. وأنا رجل أنهكته النهايات والبدايات.. رجل يتوق لأن يستقر أخيراً بلا نهاية، بلا جنائزية ديسمبر ولا فرائحية يناير.. رجل يحتاج لأن يحيا من دون أن يلاعب القدر الذي لاعبه

بعشوائية لقرابة العشرين سنة ولم يكترث لمفاجآته طوال تلك المدة..

يخيفني القدر هذه المرة، ولا أدري لماذا يحدث هذا معي!..

أظن بأنني بتّ أخشاه لأن حبيبتي امرأة قدرية جداً، لأنها ابنة القدر الشرعية الوحيدة.. لذا أشعر بأنه قادر على أن يجتثّها مني في أي وقت.. أن يئدها أمامي في أي لحظة..!.. أن يمنعها عني.. ويأخذها مني..

لطالما آمنت بفلسفة غاستون باشلار فيما يتعلق بالرغبة والحاجة.. كنت على إيمان أن الإنسان تحكمه الرغبة وليس الحاجة، لكنني أظن الآن بأن حاجتي إليها باتت أكبر بكثير من رغبتي بها.. وأدرك تمام الإدراك بأن حاجتي باتت تسيّرني، تتحكّم بي.. وتحكمني.. اليوم أدرك أنني تجاوزت مرحلة الرغبة بكثير.. اليوم أعرف كم حاجتي إليها متوقدة.. وكم تغيرت مفاهيم الحاجة والرغبة لدي!.. الحياة بالنسبة لكلينا ليست سوى صالة قمار، مجازفات تتلو المجازفات.. رهانات متغيرة.. ووجوه متجددة.. وخسائر مفاجئة.. وأرباح

غير مؤكدة.. الحياة هي أنثى خائنة في كل يوم لها عشيق جديد.. أنثى مزاجية الهوى، أنثى لا تؤتمن بالسعادة قط!.. لكننا اتفقنا على أن لا يخيفنا شيء.. أن لا نخشى القدر وأن لا يؤرقنا المستقبل.. لذا أحاول أن لا أفكر كثيراً فيما سيأتي، أن لا أقحم نفسي بمعمعة القدر..

أذكر بأن أول هدية تلقيتها منها كانت مكعّبي نرد، سألتها يوم ذاك عن مغزى الهدية.. أذكر كيف ابتسمتْ بغموض ولم تجب!.. يومها لم أعد عليها السؤال لأن كلينا لا يحب الإجابات المستحثّة.. ولأنّ كلّ واحد منّا مفرط المزاجية، وتكرار الأسئلة يفقدها نكهتها ويعكر أمزجتنا..

لكنني أعود إلى هديتها في كل مرة تطيل فيها الغياب، أرمي المكعّبين المصنوعين من الكريستال الخام وأنا أرقب الأرقام وهي تتغير في كل مرة أرمي فيها النرد.. فتبدو لي حياتي شبيهة به في تغيراتها.. وفي تقلّب أحوالها..

هي أيضاً تشبه مكعّبَيْ النرد، متغيرة ولا تسير على

وتيرة واحدة.. في كل يوم لديها تردد مختلف وذبذبات جديدة.. إلا أنني أدرك بأنها مع ذلك لن تخذلني يوماً.. أنا رجل يؤمن بأن الخذلان ما هو إلا سلوك رجولي بحت.. نحن فقط من نخذل بعضنا.. نحن من نخذل أنفسنا، نحن من نخذل النساء..!.. لذا أنا لا أخشى النساء أبداً.. أنا رجل لا يخافهن.. فحينما خذلتني العائلة وباعتني القبيلة وخانني الوطن، لم يشارك في ذلك المزاد سوى الذكور من بينهم، فلم يكن للإناث أي تأثير أو سلطة.. وهكذا عشت رجلاً لا يخذله سوى الرجال.. وما أبشع غدر الرجال..!..

أحب كثيراً أن أفكر في مغزى الهدايا التي أتلقاها، فلكل هدية حكاية.. ومع كل هدية رسالة.. لكننا لا نتفكر كثيراً في معني ما يهدى إلينا.. أهديتها في عيد الأم الماضي سواراً ذهبياً رقيقاً طلبته لها خصيصاً من بيروت، كان منقوشاً على السوار (أنا) بحروف عربية جميـــلة.. ظنتْ هي يوم ذاك بأنني قصدت بـــ (أنا) نفسي!.. ظنتْ بأنني استعضت بكلمة أنا للدلالة عليَّ لأننا لا نعرف أسماء بعضنا بعضاً.. لكنني لم أقصد هذا

على الإطلاق.. فقد كنت أقصد (أناها) هي!.. بأن تفكر في نفسها دائماً.. وأن تتناسى.. هم وهنّ وهي وهو!.. ولتفكر في أناها فقط.. فقط في أناها..

ضحكتُ كثيراً يوم ذاك على فكرة أن أهديها بمناسبة عيد الأم.. فشرحت لها كم أتوق لأن أكرّم كل امرأة في عيد النساء، فعيد الأم ليس للأمهات فقط.. عيدها هو لكل امرأة يضخّ جسدها هرمون الأستروجين.. أتوق لأكرّم كل النساء لأنني رجل يقدس النساء.. رجل لا يمتهنهن أو يستغلهن..

اليوم أخطو خطواتي "المتثاقلة" نحو منتصف عقدي الرابع.. ولم أنجز في هذه الدنيا سوى آلاف المقالات، وأربع روايات.. وبضع مئات الآلاف في حسابي البنكي، وشهادة الدكتوراه.. اليوم أنا على مشارف إنهاء روايتي الخامسة.. تتسابق الحروف لأنتهي منها.. تنهمر أفكاري بغزارة تنهكني.. تركض الجمل والكلمات في رأسي كفرس جامحة لا قدرة لأحد على إيقافها ولا رغبة لها بأن تتوقف.. أظن بأنني الكاتب الوحيد الذي يحاول استبطاء أفكاره.. ولا أدري لماذا أفعل هذا دوماً!..

أعرف اليوم بأن الكتب لا تولد إلا مع الخيبات.. خيبات القدر وحدها هي التي تدفعنا لأن نكتب.. لذا أكاد أن أفقد شغفي بطقس الكتابة هذا.. لم تعد تغريني الكتابة، ولم أعد أشتهي الحروف كما كنت أفعل قبلاً.. فكتبي لا تتزامن إلا مع فجائعي.. ورجل مثقل بالفجائع مثلي لم يعد يعزيه بريق أحزانه!..

تتراءى الآن أمام عيني، جملة علوان السهيمي التي حفرت في ذاكرتي منذ أن قرأتها.. قال علوان في رائعته "الأرض لا تحابي أحداً".. بأن "المآسي قيامات متكررة"..!.. ولم يكن علوان مخطئاً في هذا.. فحينما نقع في مأساة ما.. تقوم القيامة "الدنيوية" ولا تقعد إلا لنلتقط أنفاسنا، ولنستعدّ لقيام قيامة جديدة..

أعرف اليوم بأننا لا نودع الحزن إلا لنستقبل آخر.. بأن السعادة ما هي إلا فاصل زمني يفصل الحزن عن الحزن الآخر.. وبأن الحياة لئيمة، لئيمة جداً مع الأذكياء.. وكأنها تعاقبهم على محاولتهم لفهمها ولسبر أغوارها!.. تعاقب الحياة الأذكياء والباحثين عن أسرارها فقط.. لا تقسو الحياة على غيرهم.. تحنو هي على كل

البسطاء والسطحيين، تترفهم، تدلّلهم.. ولا ترفض لهم طلباً أبداً لأنهم لم يجرؤا يوماً عليها.. أعتقد اليوم بأن الحياة قد وضعتني نصب عينيها!.. أصبحت ممن تتلذذ بتعذيبهم.. ترفعني الحياة حتى آخر حدود السماء.. ومن ثم توقعني أرضاً لتضحك شامتة وبكل دناءة..

رجل مثلي يدرك، بطبيعة الحال، بأنه أضعف من أن يتحدى القدر، يدرك بأن حربه معه خاسرة، وبأن كل تحدياته السابقة له لم تكن إلا محاولات "استرجال" ساذجة.. بأن القدر سيظل الطاغية المسيطر، وبأنه سيبقى الشهيد الحي الذي لا يدري حقاً متى يشفق عليه القدر فيطلق عليه رصاصة الرحمة الأخيرة ليموت ويرتاح..

أنا مكتئب!.. مكتئب جداً... وعادة لا تصيبني الكآبة أثناء كتابتي لأي عمل.. أنا رجل لطالما أحب مرحلة الكتابة، رجل يستمتع بكل ما يصاحب تلك المرحلة المرهقة من أرق وألم وتضارب في المشاعر، لكنني، وما أن يرى كتابي النور.. حتى أصاب باكتئاب ما بعد الكتابة، فأكره كتابي (الوليد) لدرجة أشعر معها بالرغبة في أن أوئده وأتلف كل نسخه.. لكن حالة الكآبة

بدأت مبكرة هذه المرة.. استبقت كآبتي نوفمبر، واستبقت أيضاً روايتي الجديدة.. ولا أدري إن كنت قادراً على أن أصمد حتى يناير القادم أو حتى إصدار الرواية..

الآن فقط أشعر بأن حياتي لطالما كانت عقيمة، أدرك بأنني لن أترك فيها شيئاً خلفي.. لن أترك فيها امرأة تعشقني.. ولا طفلاً يحمل بعضي.. لن أترك فيها عائلة.. ولن يفتقدني بعد أن أرحل أي وطن، سأرحل عن هذه الحياة تاركاً فيها كلمات.. فقط كلمات.. وما أبخس ثمن الكلمات..

الحياة لم تعد بالنسبة لي سوى مرض عضال كما كان يردد سقراط في احتضاره.. ولا أدري فعلاً كيف دخلت في هذه الدوامة!.. وإن كنت أظن بأنني دخلت في دوامة الكآبة بسببها هي!... غيابها الذي طال يكاد أن يفتك بي، الحب يفعل بنا ما لا يفعل بنا أي شيء آخر.. لا أزال أذكر حالة واحدٍ من أصدقائي عندما انفصل عن زوجته مكرهاً.. أذكر كيف كان يطالع هاتفه كل دقيقتين أو ثلاث أملاً في أن تكون قد أرسلت إليه

أيّ شيء!.. كان يتوهم سماع صوت هاتفه طوال الوقت!.. كان يستيقظ من نومه ظناً منه بأنها تتصل، وهو يقسم بأغلظ الأيمان بأنه سمع صوت النغمة المخصصة لها ليصدمه سكون هاتفه في كل مرة..!.. صديقي هذا واحد من شهداء الحب وضحايا المجتمع.. رجل كرهتُ الحبَّ بسببه لفترة طويلة.. في كل مرة كنت أراه على تلك الحال، كنت أتجنب فيها جنس النساء لفترة طويلة لأنني كنت أخشى أن أصاب ببعض مما أصيب به.. كانت رؤيته وهو ينزف حباً بلا أمل تدمي القلب.. أذكر كيف كان يرسل رسائل نصّية فارغة إلى هاتفها.. وكيف تدمع عيناه حينما يستقبل ردها على رسالته الصامتة برسالة صامتة أخرى لا تحتوى على حرفٍ واحدٍ..!.. كانا يتبادلان الرسائل الفارغة طوال اليوم.. ترسل إليه فيردّ عليها.. يرسل لها فتجيب على صمته بصمت لا يفهمه سواهما...

كنا نتناول عشاءنا معاً في أحد المطاعم حينما استقبل إحدى رسائلها... أذكر كيف وضع رأسه على طاولة الطعام وبكى بنشيج مكتوم!.. فزعت من انهياره المفاجئ فسحبت منه هاتفه لتطالعني رسالتها الفارغة تماماً من أية

كلمات.. سألته بدهشة: ماذا تعني بهذه الرسالة الفارغة؟!.. قال لي وهو يغالب دموعه المشتعلة وجعاً: حينما أشتاقها أرسل إليها برسالة فارغة.. وحينما تشتاقني ترسل لي أيضاً.. أرسلت لها قبل قليل برسالة لأنني أفتقدها بشدة.. فردت عليّ برسالتين فارغتين!..

ـ وماذا تعني الرسالتان؟!..

ـ أظن بأنها تفتقدني أكثر مما أفتقدها..!..

ليلتها، تمنيت لو كان بإمكاني أن أقايض أي شيء أملكه في الحياة مقابل أن يتمكن من استعادة امرأته.. عرفت ليلة ذاك كم هو قاس علينا أن نشهد فراق عاشقين.. كم هو مضن أن ينفصل عاشقان قسراً ولا نتمكن من أن نمد لهما يد العون.. ليلتها كفرت بالحياة والسعادة والحب ولم أستعد ثقتي بها إلا بعدما التقيتها "هي"!.. لكنني أخشى أن يفقدني القدر ما استعدته مؤخراً.. لأنني أدرك جيداً بأنني إن خسرت إيماني بالحب هذه المرة فلن أستعيد إيماني به مطلقاً.. أدرك بأنني سألحد عاطفياً وإلى الأبد.. ولا أظن بأنني سأقدر على أن أكمل الحياة بعدما أتجرد من عاطفتي أيضاً..

ذهبت إلى شقتنا في ليلة شوق، اضطجعت على الأريكة التي احتضنت جسدينا في آخر ليلة حبٍّ.. كانت الأريكة مشرّبة بعطرها.. كنت أستنشق رائحتها وكأنها تجلس بجواري.. وكأنها تحيط بي.. ولا أدري حقاً إن كانت رائحتها بالفعل عالقة في المكان أم أنني توهمتها كما كان صديقي يتوهم صوت نغمة زوجته..

اليوم تراني أفكر كثيراً في الحب الذي يوصلنا إلى حدود الوهم شوقاً وأملاً..!.. أفكر في الحب الذي يجعلني أعاشر عشرات النساء خلال عقدين، لكنه يوقعني أسير امرأة واحدة فقط.. امرأة أشعر بأنها تكفيني عن كل نساء الكون، تغنيني عنهن جميعاً..

أنا رجل عندما يغضب، تثور في داخله كل الحروف.. يقال بأن الرجل ينفّس عن غضبه إما بالتدخين أو بالجنس أو بالخمر، أما أنا فرجل لا ينفس عن غضبه إلا بالكتابة والحب.. لكن إن كان الحب هو سبب ثورتي هذه المرة، فكيف أعبِّر عما يعتمل في صدري..؟!..

بين الحين والآخر أُخرجُ، الباوند الذي أهدتني إياه في يوم العيد الماضي.. أتحسسه كإرث مقدس!..

كنا في شقتنا يوم ذاك، نتناول ألواح الشوكولاتة بنهم، ونحن لا نزال ممدّدين فوق الأريكة... لم نكن يومها سوى طفلين يتشاركان أريكة ويمدان رجليهما نحو الطاولة المقابلة لها بلهو الأطفال... قلت لها وأنا ألعق إصبعي المغطّاة بالشكولاتة: أتدرين بأنه أول عيد ديني يجمعنا..؟!..

سحبتْ من المقعد المجاور حقيبة يدها وأخرجت باونداً، مدته لي قائلة: نسيت بأن اليوم يوم عيد.. عيدك مبارك..!

ضحكت وأخرجت من محفظة نقودي باونداً أعطيته إياها: أيامك سعيدة!..

يومها ضحكت كثيراً على "عيديتها "!.. لكنني أحببت الباوند جداً، وضعته في جيب خفي داخل محفظتي.. وخبّأت هي باوندي في حقيبتها.. شعرنا يومها بأننا قد حزنا على كل ثروات العالم بباوندين فقط!.. لكنني في كل مرة تطيل فيها الغياب، يأكلني

الخوف من أن لا يكون قد تبقى لي منها سوى باوندٍ واحدٍ..!..

الحب هو هدية الله التي لا تقدر بثمن.. الحب حالة روحانية، حالة تجعلنا نتسامى إلى أبعد حد، نتسامى إلى حيث لا نعرف.. في الحب نشعر بأننا مباركون، مباركون للغاية.. نشعر بأن هالة من البياض تحيط بنا، بأن الله يحتضننا بشدة، بأن الحياة أجمل من أن تكون مجرد محطة.. في كل حكاية حب نشعر بأننا نحب ولأول مرة.. ننتشي وكأنها المرة الأولى التي ننتشي فيها.. لكن الحب قاسٍ.. قاسٍ جداً.. وأظن بأنني كبرت على أن أتحمل حباً مبهماً كالحب الذي يربطني "بها"..

هي حالة غريبة، امرأة استثنائية.. حضورها جامح، حديثها شامخ، امرأة واثقة، مؤثرة وقوية.. امرأة أرسلها القدر إليّ في وقت لم أكن فيه بانتظار أي مفاجآت قدرية.. فأربكني مجيئها المفاجئ وزادني التباساً..

هذا التشويش هو ما يجعلني هذا الرجل، رجل المزاجية، التناقضات.. التذبذب.. تتعبني كثيراً.. لكنني

متلبس بها ولا قدرة لي على الشفاء منها،.. أشعر أحياناً بأن مزاجيتي هي اللعنة التي أصابتني حينما غادرت الوطن.. الوطن هو تلك الأرض التي يلعن كل جميل فيها، والتي تلعن كل من يغادرها.. وليس أمامنا إلا أن نختار، فإما أن نشقى فيها وإما أن نشقى بعيداً عنها.. وأنا رجل يمقت الوطن، يمقته كثيراً، لذا أنا على استعداد لأن أتحمل لعنات الدنيا كلها.. ما دمت بعيداً عنه.. ولا يربطني به أو فيه أي شيء!..

قبل مجيئها، لم أكن سوى رجلٍ "استثنائي".. وبعدما جاءت، أصبحت نبياً.. نبيّاً موحى.. نبيّاً لم يكن في حياته قبلها.. سوى الكتب، والسجائر، وبيانو يشاطره الحياة..

وليام جيمس يدعي بأن الألم هو مفتاح الإبداع وطريق العبقرية، ولست أخالفه الرأي في هذا.. لكن الألم حينما يتفاقم يخنقنا.. فلا نعد قادرين على القيام بشيء بتاتاً.. وأنا في غيابها تتشتت في داخلي كل المشاعر والأفكار.. فلم أقدر على أن أفكر بشيء سواها.. لست بقادر على أن أتجرع المرارة العالقة بحلقي..

رجل مثخن بكل هذه المرارة، لن يقدر على أن يواجه القسوة التي تجابهه بها الحياة.. اليوم أفكر كثيراً بما تخلّفه لديّ هذه المرأة.. يخيفني كثيراً ما باتت تخلقه فيّ.. لأنني أدرك جيداً بأنها أن تركتني فجأة.. فلن يقدر شيء على أن يجتثّ مغبة فقدها أبداً..

في حياة كل امرئ منا، خيط رفيع يربطه بالحياة.. ما أن ينقطع هذا الخيط حتى نفقد الرغبة بالتنفس والاستيقاظ والتفكير والعيش!.. وهي الخيط الذي يبقيني حياً فكيف أمارس الحياة بلا رابط يربطني بها؟!..

كتبت لها رسالة، احتفظت بها بجيب معطفي.. علّني أجد لها يوماً عنواناً أرسل لها عليه.. كتبت في رسالتي:

( لما لا تعودين؟!)...

لكن الرسالة بقيت في جيبي ولم تغادره.. وظلّ قلبي يئن، يلوب في ألم، يسائل في شرود.. لم لا تعود؟.. فلا يجيب سوى صدى "لم لا تعود".. ولم أجد من أعاتبه سوى الأيام، والزمن المفرق والوجود الذين

عاتبتهم فدوى في رائعة الغياب تلك ولم تجد صدى لعتابها "مثلي"!..

***

أطلّع بين الحين والآخر على ما تكتبه ليلى في الصحف السعودية.. تطالعني صورتها على صفحات الجرائد وهي تبتسم بانتصار وكأنها تقول عبر صورتها التي لم تتمكن من إرفاقها بمقالاتها إلا منذ سنوات بسيطة، "اليوم أظهر على صفحات الصحف وبصورة جميلة بعد حجب المجتمع والقانون لي ولصورتي لعقدين من الزمن"..

ليلى التي نحتت سنوات البعد على ملامحها نضوجاً شامخاً.. لم تعد إلى الكتابة إلا منذ قرابة العشر سنوات، كفّت يدها عن الكتابة لسنوات بعد المظاهرة التي شاركت فيها.. لكنها عندما عادت لم تعد بمبادئ مختلفة ولا تغيرت قناعاتها السابقة في شيء!.. التوقف عن الكتابة والعقاب لم يغيّرا فيها شيئاً أبداً..

على العكس تماماً، فهي حينما عادت.. عادت وهي أكثر إيماناً بقضيتها، عادت وهي تختزن طاقةً جبارة

تسعى بضراوة نحو التغيير الذي لطالما نشدته والذي جازفت من أجل حدوثه..

أذكر اليوم الذي أرسلت لي فيه في أغسطس الماضي.. فتحت بريدي الإلكتروني الخاص بالصحيفة.. لأجد رسالة بعنوان: خمن!.. كتبت لي فيها:

العزيز هذام العاصم.. سيد المقالة العربية..

لكم تغيرت!.. قرأت مقالتك اليوم وأخذت أفكر في إن كان واحد منا قد توقع أن يصبح ذلك النحيل الخجول الذي التقيته مصادفة في مبنى الجريدة قبل عشرين عاماً من أشهر كتّاب المقالة العربية ومن أفضل الروائيين العرب؟!..

صدّقني، لا أظن أن أحداً منا قد تخيل ذلك!..

لا أعرف إن كنت السبب الرئيسي لتغيرك، لكنني أدرك، وبلا شك، أنني كنت أحد أسبابه..

أننسى أسباب تغيرنا يا هذام.. أم تظل أسبابنا حية في ذاكراتنا؟!..

فخورة أنا بأنني كنت يوماً من أقرب الناس إليك، وسأظل أذكر دائماً أننا كدنا يوماً أن نكون عائلة..

بالمناسبة، رزقت منذ أشهر بطفلي الثالث.. وددت

لو أسميته باسمك، لكنني فضلت أن اختار له اسماً جديداً ليبتدئ من حيث لم ينتهِ أحد..

كن بخير، ولا تنسَ سببك!..

ليلى قنديل،

ابتسمت حينما قرأت رسالة ليلى، ..لم ابتسم فرحاً، لكنني ابتسمت لشيء لا قدرة لي على تفسيره!..

بعض الذكريات عندما تقفز في ذاكراتنا، وبعض "الماضيين" الذين يظهرون فجأة في حيواتنا بين الحين والآخر، يجعلوننا نبتسم لا سعادةً ولا تهكماً، بل لأن شيئاً ماضياً جميلاً، وأحياناً مراً، زارنا في وقت لم نتوقع فيه أية زيارات من الأمس البعيد..

ربما ابتسمت لأنها لا تزال تذكرني.. ربما سعدت لأجلها..!.. فرحت لأنها أصبحت أماً وأسّست عائلة.. ربما ابتسمت لأنني كنت بحاجة إلى يدٍ حنونة تطبطب على ظهري من ماض لا يحنو عليّ منه شيء..

أممم، الحقيقة أنني لا أدري لما ابتسمت!.. لكن رسالة ليلى كانت أجمل رسالة تلقيتها في حياتي كلها..

لكنني لم أعرف بما أرد عليها، ضاعت ثروة

الحروف مني وأفلست كلماتي.. ولم أتمكن من أن أكتب لها شيئاً أعبّر فيه عن شيء بسيط مما يعتمل في داخلي من مشاعر لا تفسير لها.. وبعد ساعتين من المحاولات كتبت لها باختصار غير مبرر:

العزيزة ليلى،

أعدك أن لا أنسى أسبابي، وأن تظلّي في عمري كلّ الأسباب..

ظلي بخير وقبلاتي لصغارك ولمولودك الجديد..

هذام العاصم.

عندما تركت المكتب، توجهت إلى الشقة التي نلتقي فيها أنا و"غائبتي".. كنت بحاجة إلى مكان يشعرني بالحب، بيتي لم يكن دافئاً أبداً.. كان شاسع الوحدة، عميق البرودة.. بطيء الزمن.. على العكس من مكان التقائنا الذي كان صغيراً، حميماً.. دافئاً، وممتلئاً بنا..

ظللت أفكر طوال اليوم في ليلى، في الذي جمعنا، في حكايتنا.. فيما أصبحَتْه هي وما آلت إليه أنا.. كنت أفكر في العقديين الماضيين.. فكرت فيما لو كنت قد تجاهلت جرحي وبقيت حيث كنت.. فيما كانت ستكون

عليه حياتي الآن.. وفيما إن كان بقائي وقتذاك كفيلاً بأن ينسيني الجرح.. أشعر أحياناً أن بعدي عن الذين كنت أرتبط بهم هو ما يزيدني غضباً، يراودني ظنّ جبان يخشى المواجهة أنني ربما كنت سأتجاوز ما حدث لو كنت قد بقيت..

أشعر أحياناً أن رحيلي لم يكن إلا جبناً، وأنه كان من الواجب عليّ أن أبقى وأن أحاول استرداد ما اغتصب مني من دون أن أنفي نفسي أو أن أتخلى عن كل شيء في سبيل أن أحيا بسلام.. أشعر أنني لو كنت أشد شجاعة، ولو كنت قد واجهت الأحداث بجسارة لربما كنت انتصرت..!.. وإن كنت أدرك أن التيار الذي كنت أعاكسه لم يكن ليسمح لي بالاستمرار في السباحة في محيطه الواسع وفي مياهه الثقيلة الهائجة.. كان ليغرقني قتلاً ويقتلني غرقاً.. لكنني أدرك الآن أن الموت في استشهاد حبٍ أسعدُ بكثير من أن أعيش طوال حياتي مضطرب العاطفة..

كان من الغريب أن أفكر بليلى وفي غائبتي في الوقت ذاته.. لا أعرف كيف تداخلتا!، ولا كيف أفكر في امرأتين، إحداهما تأبى العبور من حياتي على الرغم من

أنني لم أعد أحبها.. وامرأة أحبها لكنها تأبى البقاء..!..

الحب من أعقد الأمور التي لن نتمكن يوماً من تفسيرها.. فأنا اليوم لا أزال أفكر في ما حدث بين مادلين وجهاد العام الماضي.. يدهشني كيف تجاوزا ذلك الخدش وكأنه لم يحدث.. تدهشني نوعية الحب التي تربطهما، ماهيته.. صلابته!..

لا أزال أذكر الليلة التي أيقظتني فيها مادلين،.. اتصلتْ بي قرابة الثانية صباحاً، كنت أقرأ في فراشي في محاولة استجداء للنوم، اعتدلت في جلستي ما أن رأيت رقمها على شاشة الهاتف، فلم تكن مادلين لتتصل بي في ساعة كهذه إلا لأمر جلل..

قالت: هذام، أنا ع الباب.. إفتح لي بليز!..

سألتها بدهشة: باب!.. أي باب؟

صاحت بعصبية: باب شقتك يا هذام!.. يعني أي باب راح يكون!..

قلت لها وأنا أقفز من فراشي: حسناً حسناً، أنا قادم إليك!..

سحبت من خزانتي سروالاً طويلاً ارتديته على عجل، وهرعت نحو الباب...

قلت لها وأنا أفتح الباب: عفواً مادلين، نطّرتك؟!..

قالت وهي دالفة : ما تعتل هم.. كتّر خيرك فتحت إلي بهالوقت!.. بس كنت أكيدة إنك مانمت بعد.. منشان هيك جيت..

قلت لها وأنا أدير سخان القهوة: شرّفتِ يا ستّنا، أحكي لي، شو اللي صاير معك؟

قالت وهي تمسح دمعة فارَّة من عينيها: ليه دايماً الخليجين بيحكوا لبناني مع اللبنانية وبيحكوا مصري مع المصريين!

قلت لها وقد بدا أمامي قهرها جلياً على الرغم من جملتها التي حاولت فيها أن تداري قهرها: تعدد مواهب!..

قالت وهي تزيح شالها عن رقبتها: شو غليظ!..

وضعت كوب القهوة أمامها، قلت وأنا أمسح على شعرها: قولي لي!.. عم بسمعك!

قالت وهي تقاوم البكاء: ما بعرف شو بدي أقلّك!..

ـ أحكي ولا تفكري..

ـ أممم، كانت طالعة لمانشستر أسبوع.. كنت رايحة أزور رفيقة هونيك!..

ـ أيه!

ـ كنت رايحة أزور إيملي سمعان، ما أنتا بتعرفا!..

هززت برأسي مستحثاً: أيه أيه!..

ـ كان المفروض إرجع بكرا.. بس حبيت أعمل مفاجأة لجهاد.. فجيت اليوم!..

شعرت أنني بدأت أفهم ما حدث، قلت لها: وشو اللي صار؟

انفجرت بكاءً: جيت وحصلت البيت كله شموع وزهر يا هذام!.. ظنيته منشاني!.. ما بعرف كيف فكّرت هيك!.. جهاد ما كان بيعرف إني جاية!.. بس ما بعرف ليه فكرت أنو منشاني!.. يا الله شو بلهاء!..

ضممتها إلي صدري بقوة، قالت وهي تصيح ما بين دموعها: سمعت صوتن في غرفة النوم!.. تصور يا هذام في غرفتي وع تختي!..

ـ طولي بالك، طولي بالك!.. ما تزعلي.. كل مشكلة ولها حل.. روقي..

ـ جهاد بيعمل هيك يا هذام!.. جهاد !.. بتخيّلا منك، من بيّيّ.. من أيا واحد في الدنيّ!.. بس جهاد!.. معقول جهاد!..

ـ خلاص خلاص ما تحكي!.. قومي وتحممي ع بال ما أعمل لنا شيء نأكله..

ـ ما فيني يا هذام!.. حاسة حالي راح موت!..

ـ لو ماتت امرأة لأن زوجها خانها، لمات نصف نساء الكون..

قالت وهي تمسح دموعها: بدك تفهّمني بأنّ نصف رجال الكون خونة؟!..

ـ بل جميعهم، لكن نصف هؤلاء هم الذين تنكشف خياناتهم أمام نسائهم.

ابتسمت بمرارة: يا الله!.. ما بعرف كيف بتتعامل مع كل شيء في الحياة ببساطة؟!..

ـ لأن الحياة أبسط مما نتخيل، نحن من يعقّدها يا مادلين..!

ـ ما اللي إيدو بالنار مو متل اللي إيدو بالميّ!.. أنتا شو اللي فهمك!.. ما أنتا في حياتك كل يوم ستّ،

ست رايحة وست جاية!.. ما بتفهم شو يعني التزام ولا ارتباط ولا حب!..

قمت من مكاني وسحبتها من يدها باتجاه الحمام: ع بال ما تتحممي أكون جهّزت لك لقمتين طيبين.. راح تحصّلي المناشف في الخزانة السفلية..

دخلت إلى الحمام مستسلمة، وتركتني في المطبخ.. اعتصر ألماً على قصة حب عظيمة تكاد أن تنهار أمامي، لم أكن على استعداد لأن أتقبل فعلة جهاد!.. فعلى الرغم من أن جهاد صديق عمري.. ومع أنني قادر على تقبّل أي شيء منه، إلا أنني لم أكن لأقبل أن يمس مادلين أي أذىً منه، كل شيء يقبل منه، إلا مادلين!..

مادلين وجهاد لم يكونا بالنسبة لي مجرد صديقين، كانا بالنسبة لي العائلة في الغربة والانتماء والمرجع الوحيد الذي أعود إليه.. في بيتهما أشعر أنني في بيتي، أعرف مكان كل شيء.. وكل شيء في بيتهما يعرفني..

بصحبتهما لا أشعر أنني غريب، بل أشعر أنني ثالث ثلاثة!.. ضلع المثلث الثالث الذي لا مناص منه والذي لا بد من وجوده بينهما..

أنا لن أنسى يوماً، كم عرَّفتني مادلين على فتيات

بغرض أن تزوّجني إحداهن.. لن أنسى صناديق الكعك التي تزودني بها في كل عيد.. ولا مفاجآت أعياد ميلادي التي كانت تعدّها لي ولا يذكره سواها.. لن أنسى أنها الوجه الوحيد الذي قابلني بعد استيقاظي من عملية استئصال الزائدة الدودية التي أجريت لي قبل عدة أعوام..

لن أنسى السجادة التي أهدتني إياها لأصلّي!، يومها سألتها بسخرية: كيف تهدين مسلماً سجادة وأنت مسيحية؟!.. مو عيب عليك؟!؟..

قالت: بتمنى أشوفك تصلّي مرة واحدة بحياتي!..

ـ وما شأنك أنت؟!..

قالت بعصبية: مابدي تروح النار ياخيّيّ!..

يومها أحببت مادلين أكثر، أحببت تسامحها.. وبياضها.. وإيمانها.. ووددت لو أصبحت مثلها يوماً..

حكاية حب جهاد ومادلين هي الحكاية التي أستند إليها في لحظات اليأس، هي الحكاية التي تشعرني أن حباً ما.. امرأة ما.. لا تزال تبحث عني في رقعة ما.. فكيف يشوّهان الحكاية؟!.. ولما يفعلان بي ذلك..؟!..

خرجت مادلين من الحمام وقد لفّت جسدها بإحدى مناشف الاستحمام الكبيرة... قلت لها وأنا أسكب الطعام في الإناء:

ـ كأنك طيحتي الميانة!..

ـ قالت وهي تعدل المنشفة المحيطة بشعرها: شو يعني!..

ـ يعني كأنو صرت بتموني!..

ـ ما فهمت!

ـ تتمشي في بيتي بالمنشفة بس!..

ـ دخيلك ياللي ما بتمشي في بيتي بالبوكسر!..

ـ دا كان زمان!.. الآن أنا محترم.. راقل ملو هدومي!..

ـ أنتا دايمن هيك؟!.. شوية خليجي، ع شوية لبناني ع شوية مصري، ع شوية إنقلش.. شو قصتك!ماعندك هوية؟!..

ـ عندي جواز سفر!

صمتت قليلاً وقالت بألم: منّي قادرة أصدّق اللي صار!..

قلت وأنا أحمل الطعام إلى طاولة الأكل حيث تجلس: ما تفكري!.. الرجال كلهم كلاب ضالة!..

ضحكت بضيق: هيّ الكلمة الوحيدة اللي حبيتا منك من إجيت!..

ـ مادلين صدقيني أمامك أمر من أربعة، إما أن تتجاهلي ما حدث الليلة وتعودي في الغد إلى جهاد وتغفري له كأن شيئاً لم يحدث،.. وإما أن تعودي إليه وتصارحيه بكل ما رأيته وتحاولان معاً التوصّل إلى اتفاق، وإما أن تذهبي إليه وتخبريه بمعرفتك بما حدث وتتركيه إلى الأبد..

ـ والأمر الرابع؟

ـ إما أن تخونيه معي، فتتعادلان!..

ضحكت من قلبها، فابتسمتْ: مادلين.. لو كان ما بينهما حقيقياً لأخبرني جهاد.. هي ليست إلا نزوة.. نزوة يخجل من ذكرها حتى لي.. صدقيني مادلين النزوات تنتهي ما أن تقع..

ـ اللي بيغلط مرة بيغلط مليون مرة يا هذام!..

ـ مادلين، جهاد بلش يكبر، وأنت لساتك صبية..

منشان هيك يحاول يثبت لنفسه بنزوة بيرتكبا أنو لساته مرغوب ولساته شبّ!..

ـ عمري 46 سنة يا هذام وأنتا بتقلي لساتك صبية!..

ـ وعمره شي ستين سنة.. لذا راح تظلي بعيونه صبية مهما كبرت..!..

سكتت قليلاً وقالت وهي ترفع الملعقة إلى فمها: قلت لي ليه بيحكوا الخليجيين لبناني مع اللبنانية؟!..

ـ تعدد مواهب!..

وضحكت مادلين... فاطمأنت نفسي!.. وعادت إليه في اليوم التالي كما كان مقرراً..

عادت إلى جهاد وكأن شيئاً لم يكن.. وإن كانت قد قررت أن تلقنه درساً قاسياً.. كنت أعرف أن من المستحيل أن تفكر مادلين بخيانة جهاد كما يفعل غالبية اللواتي يتعرضن للخيانة في مجتمع مفتوح، لكن مادلين لم تكن من ذلك النوع من النساء.. كانت امرأة مؤمنة على الرغم من بعض المعاصي الصغيرة.. إلا أنها كانت

تعدّ من المسيحيات المحافظات.. اللواتي لا يرتكبن خطيئة كتلك..

لا أزال أذكر وجه جهاد الذي كان يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، لكنني لم أجرؤ على سؤاله عن أسباب تغيره وبداية الكآبة التي كان جلياً أنها بدأت تتسرب إليه.. لم أسأله لأن حواراً كذاك كان من المفترض أن يبدأه هو، وليس أنا.. مهما كانت علاقتنا قوية..

لكن صمته لم يطل.. اتصل بي وأنا في مكتبي، قال باقتضاب: أريد أن أراك!..

وجدته عندما جئت رجلاً ضعيف الهمـة، وكأنه رجل آخر... قال لي: هذام ما سأخبرك به يجب أن يبقى بيننا..

ـ لست بحاجة لأن تطلب مني ذلك.. فما بيننا لطالما ظل بيننا..

ـ لكن الأمر يختلف هذه المرة يا هذام.. هذا الموضوع ليس كأي موضوع آخر!..

قلت له ساخراً: أجنّدتك الموساد؟!

ـ بالنسبة لي، الموضوع أهم وأعظم من أي أمر قد تتخيله..

قلت له بحزم: فلتعتمد عليّ!..

ـ مادلين.. مادلين يا هذام..!

ـ ما بال مادلين؟

أخذ يتحسس جبينه بأصابعه بتوتر: ما بعرف !

ـ بإمكانك أن تخبرني عن أي شيء..

ـ بحسّ أنو مادلين منّا طبيعية.. فيها شيء!..

ـ شيء مثل شو؟..

ـ ما بعرف!.. ما بعرف..

ـ قل ما عندك!..

ـ بحس أنّا بتخوّني!..

قلت له بسخرية: شو هالحكي!..

قال بعصبية: كنت أكيد أنك راح تتعامل مع حديثي بهالسخرية..

ـ طوّل بالك.. أنا بس مستغرب.. كلنا بنعرف شو بتحبك مادلين.. ما بعرف منين جبت هالفكرة؟!..

ـ تصرفاتا يا هذام!.. تصرفاتا...!.. منّا مرتي..!.. صارت بتهتم بحالا كتير.. بتتزوأ كتير.. بتظهر كتير.. أيّ صح مادلين بتحب هالأشياء، بس مو لهالدرجة المجنونة!..

قلت له: هذا ليس بدليل على أنها تخونك..

ـ صدقني يا هذام.. لو تأكدت من هالشيء.. صدقني بقتلا!..

قلت له: لا والله برافو عليك!.. تقتلها لأنك تظن أنها تخونك.. ولا تقتل نفسك على الرغم من أنك تخونها..

قال منصدماً: شو خنتا وما خنتا، من وين جبت هالحكي؟!..

اتكأت بكفي على مكتبه وانحنيت باتجاهه: قبل شهرا.. لمن كانت بمانشستر..

هبّ من مكتبه واقفاً: وأنتا شو عرفك..؟؟

ـ هي حكت لي..

ـ مادلين !!!!..

ـ كانت حابّه تعمل لك مفاجأة.. لما وصلت البيت حصّلتك محضّر لها مفاجأة من عيار ثقيل..

ـ دخيلك ما تقولا!..

قلت له متجاهلاً: جاءتني البيت.. شبه منهارة.. لكن لا تقلق لم أستغل ضعفها وجرحها.. دخلت سليمة وخرجت سليمة..

ـ وضع يديه حول رأسه: يخرب بيتك يا هذام ع هالخبريه!..

ـ أنت من يخطئ وأنا من يخرب بيته!..

ـ ياربي دخيلك!..

ـ آخر ما كنت أتصوره منك هو أن تخون مادلين..

ـ دخلك ما تحكي هيك، ما أنتا كل يوم مع صبية.. جاي بتعمل حالك خوري عليّ!..

ـ وهل تقارن نفسك بي!.. أنا ماني مجوز!.. ما بحياتي ست كالست اللي مضوية لك حياتك!..

ـ الله لا يعطيك عافية يا هذام، الله لا يعطيك عافية!... ليش ساكت طول هالوقت؟

ـ هي طلبت مني أن لا أخبرك، ومن حقها عليّ أن أستجيب لطلبها..

ـ يعني اللي بفكر فيه منو وهم!.. مادلين بتخوني..

ـ مادلين لا تفعل شيئاً كهذا..

ـ وليش ساكته طول هالوقت إذا ماعندا شيء؟!.. مافي مرا بترضى تشوف جوزا بيخونا وتسكت.. مادلين ما بترضاها.. ما بتسكت إلا إذا كان عندا شيء..

ـ مادلين أذكى مني ومنك، قدرت على أن تعذبك طوال هذه المدة.. من دون أن تمس وفاءها فعلاً..

ـ شو بعمل يا هذام؟!.. دخلك ماتتركني..

ـ قل لي أولاً، من هذه التي كنت معها ومنذ متى وأنتما على علاقة؟

ـ وحياتك يا هذام، وحياة مادلين.. هيدي أول مرة بعملا من شي عشرين سنة..

ـ ألن تخبرني عمن تكون؟

ـ صبية ما بتعرفا.. تعرفت عليها بالطيارة وأنا جاي من المؤتمر الأخير في بيروت.. منّا إلا نزوة يا هذام.. صدقني ندمت عليها أول ما صحيت منا..

ـ ما الفكرة ما بتجي إلا بعد ما تزول السكرة..

ـ شو بعمل يا هذام..؟!.. إحكِ لي كيف أتصرف..؟

ـ برأيي أن تأخذها في إجازة، تتحدثان أثناءها وتحاولان تجاوز ما حدث.. خذها للمالديف مثلاً.. أو بالي.. أذهبا إلى مكان تجددان فيه حبكما..

شرد جهاد قليلاً ومن ثم قال: الله لا يعطيك عافية

يا هذام!.. الله لا يعطيك عافية.. فكّرتك صاحبي!.. كيف بتسكت طول هالوقت؟

ـ فكّرتك صاحبي بتحكي لي كل شيء أنت كمان، بس طلع عندك أسرار ونسوان..وشيء بيسوّد الوش!..

ـ دخيلك أتركني لحالي.. بدي أجلس لحالي شوي..

قمت من مكاني باتجاه باب المكتب عندما صاح بغضب: ما بعرف ليه بتحكي لبناني لما تحكي معي..!.

التفت إليه مبتسماً: تعدد مواهب!..

وخرجت ضاحكاً!..

ضحكت لأن مادلين وجهاد يتشابهان كثيراً، حتى ملامحهما تزداد تشابهاً كلما تقدم بهما العمر.. وكأنهما يعودان إلى رحم واحد كلما كبرا.. وأنا أعرف، أعرف جيداً أن هذا التشابه ليس إلا فعل حب!..

عندما خرجت، كنت مدركاً تماماً أنني تركت جهاد يصارع أفكاره وخجله وخوفه من أن يفقد مادلين..!..

أخذت أفكر يومها لما نجازف بنسائنا إن كنا نخشى خسارتهن!.. لما نظنّ دائماً أنهن راغبات بالمغفرة وأنهن

قادرات على ذلك، لما نقامر بالحب والاستقرار والراحة والأمان والطمأنينة والعشرة من أجل نزوة غالباً ما نندم عليها ما أن نسكب مياهنا!..

أخذت أفكر في خسائر الرجال الذين ينهزمون أمام الرغبة، والذين تتعطل عقولهم أمامها.. فكرت بكم من علاقة انهارت في لحظة ضعف، وكم من حكاية انتهت يوم يفقد فيها الرجل وفاءه جرّاء رغبة طارئة!..

فكرت بمادلين، تلك المرأة المحبة الاستثنائية، فكرت بهذه الطاقة من الغفران التي تشع منها وبقدرتها على المضي بتسامح وسلام على الرغم من خذلان جهاد لها..

ولم تُخيب مادلين ظني بها، صمدت على الرغم من مرارة الحدث.. سافرت مع جهاد إلى المالديف وعادا وكأنهما قد تزوجا للتو.. لم أسأل عمّا حدث بينهما هناك ولا كيف استطاعا أن يتجاوزا ذلك الجرح.. فكل ما كان يهمني هو أن تعود مادلين سيدة لجهاد، وأن يعود جهاد رجل مادلين الذي لطالما أحبت.. ليعاودني الأمان الذي فارقني ما أن وطأت مادلين عتبة بابي وهي منهارة تلك الليلة!.. ولأفكر مراراً وتكراراً كيف يعيش الحب

على الرغم من الطعنات والطلقات من دون أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ويموت!..

***

وعلى الرغم من أنني كائن قدري جداً، إلا أنني لست بقادر على أن أتصالح مع الموت على الإطلاق..!..

أفكر كثيراً في أن "الموت ليس نهاية القصة بل بدايتها".. جملة مصطفى محمود التي أعلقها في مكتبي منذ قرابة العشرة أعوام.. والتي لا أزال أجهل ما وراءها، والتي زادت حيرتي بشأن ما يخبئه ما بعد الموت..

أفكر في الضوء وفي العتمة التي قد تلوح لنا ما أن نموت، في سراطه، في البرزخ.. في رائحته.. في ألوانه.. في ماهيته المجهولة.. وفي صوت الموت الصاخب المكتوم..

لطالما بحثت في ماهية الموت.. فتشت عنه في كل الأديان.. لكنني لم أصل إلى تصور واضح عن هذه التجربة... كل الأقاويل تتجاوز مدى تفكيري بكثير،

لكن على الرغم من إيماني بأن الأقاويل الإيمانية تتجاوز العقل إلا أنها لا تتنافى معه كما يؤمن بعض الفلاسفة.. ومع ذلك أتوق إلى إجابة تشبع هذا الفضول بشأن الموت الذي بات يتعبني جهلي به..

أذكر جملة جهاد البسيطة يوم تناقشنا بخصوص هذا الموضوع، فقال لي متململاً: لا تفكر في الأمر كثيراً يا هذام.. ستصل إلى كل الإجابات التي تشغل بالك ما أن تموت..

ومع أن جملة جهاد كانت في أقصى حالات الواقعية إلا أنها أحبطتني كثيراً!.. أحبطتني فكرة أن أبقى جاهلاً بالأمر حتى لحظة مروري بالتجربة.. أنا رجل لا يعوّل كثيراً على النظريات.. لكنني، وعلى الرغم من هذا لا أحبّذ الخوض في "كل" التجارب لإثبات نظرية ما، خاصة إن تعلق الأمر بمجهول كالموت.. الموت ليس كالحياة، في الموت لا تغرينا التجربة..!.. قطعاً لا تغرينا..

للموت هيبة لا يضاهيها شيء، تكمن هيبته في أن شهود الموت لا صوت لهم.. فحينما يشهد أحدنا

الموت.. يسكت صوته إلى الأبد.. فمن يذهب إلى الموت لا يعود منه.. الموت لا خط رجعة له، خط ذهاب بلا إياب، طريق واحد يستقبل البشر ولا يرسلهم، يأخذهم ولا يعيدهم.. فكيف نعرف معنى الموت وكيف نفهم سره إن كانت الدروب تفضي إليه ولا ترتد منه أبداً..؟!..

أنا رجل لا يخاف الموت.. لكنني أحترمه، أحترمه أكثر من أي أمر آخر.. أحترم غموضه، هيبته.. ووقاره الذي لا يضاهيه وقار..!.. وقور هو الموت بحضوره، بحزنه، بسواده، بصمته وبروده.. وقور هو بكل ما فيه..

لذا لطالما انحنيت احتراماً للموت لأنني لست بحاجة لأن أمرّ بما مرّ به فولتير الذي يشاع بأنه كان من أشرس الملحدين، والذي عاش فترة احتضاره وهو "يلعن" الموت الذي أدرك كم هو رهيب ومهيب أثناء مواجهتهما... شخصياً أحترم الموت من دون أن أمر بالتجربة.. أحترمه قانعاً وأدرك بأنني سأصل إليه حتماً لا محالة.. لكنني لا أرغب بأن أموت وجعاً.. فبعدها يوجعني بشدة.. ودرويش قال يوماً بأن " أسباب الوفاة

كثيرة من بينها وجع الحياة ".. وأنا رجل يؤمن بكل ما يقوله درويش..!.. يؤمن به بشدة..

***

Yesterday

All my troubles seemed so far away

Now it looks as though they're here to stay

Oh, I believe in yesterday

Suddenly

I'm not half the man I used to be

There's a shadow hanging over me

Oh, yesterday came suddenly

عندما تبكينا الأغاني، فهذا يعني بأننا إما في أقصى حالات الوجع.. أو أننا في أشد أوقات الحاجة.. وكلا الشعورين أمرّ من العلقم!..

إلهي لكم هو قاسٍ أن تبكي رجلاً في منتصف أربعينياته أغنية عمرها عشرات الأعوام!.. لكن

Yesterday البيتلز تحكيني!.. تحكي حالتي بوجودها وفي غيابها.. أغنية البيتلز هذه.. إرث البشر الذي سيترك على الأرض إلى يوم لا يكون فيه أحد.. إلهي لكم بت أشعر بأنني لم أعد شيئاً في غيابها.. وهذه مشاعر لامنطقية.. هذه مشاعر لا تشبه المنطق أبداً.. لكن الحب حالة لامنطقية، وفي هذا عزاء لي بكل تأكيد..

من يصدق بأن رجلاً مثلي، رجل بقدري.. بات يقضي لياليه باكياً على أريكة مشرّبة بعطر امرأة لا يعرف حتى اسمها.. الأريكة التي أصبحت كهفي منذ أن نامت عليها "هي"، منذ أن تلطخت بأحمر شفاهها وتشبعت برائحتها..!

من قال بأن الحب يمنحنا الحياة؟!.. الحب يجتث الاستقرار منّا، الحب يغيّرنا، يغيّرنا تماماً..!.. وأنا أحتاج لأن أطمسها من حياتي كلياً، أحتاج لأن أنتزعها من تاريخي، لأن أفقد جزء ذاكرتي المتعلق بها.. لكنني أدرك جيداً بأنني لن أقدر يوماً على أن أفعل هذا..

هذه المرأة عندما جاءت.. جاءت وهي تدرك بأنها ستخلد في داخلي، جاءت وهي واثقة بأن مثيلاتها لم

يوجدنَ يوماً.. لذا كان اقتحامها عنيفاً، كان اجتياحها صاخباً، عارماً..

أنا رجل لا تلفته سوى الذكيات.. وذكاء المرأة لا يكمن في قدرتها على أن تحبّب رجلاً فيها، المرأة الذكية ليست التي تجعل من نسيانها أمراً صعباً، المرأة الذكية هي التي تجعل من نسيانها أمراً مستحيل الحدوث.. وحبيبتي امرأة حادة الذكاء.. امرأة لا يمكنك تجاهل مرورها في حياتك أو تجاوزه..

أصعب ما في الحب هو أن ترتبط عاداتك بالطرف الآخر لأن تلك العادات تعذبنا بعدما ننفصل عن من نحب... عادة التفاصيل هي التي تشدّنا.. هي التي تبهرنا، وأنا رجل يحب التفاصيل الصغيرة.. يعشقها..!..

كنا نراقب بعضنا بعضاً بحب صامت في أحد المطاعم، كنت متكئاً على مرفقي أنظر إليها مشدوهاً، وقد كانت تجلس مثلي، تتكئ على مرفقيها صامتة وكأن الحب قد عقد لسانينا!.. لاحظت يومها بأن ساعة يدها

تحيط بمعصمها الأيمن على العكس من "أغلب" البشر.. سألتها: لماذا ساعتك في يمينك؟!..

ـ قالت مبتسمة: ولماذا ساعتك متقدمة عن الوقت الأصلي بربع ساعة؟!..

ـ ضحكت بقوة لأن غيرها لم ينتبه يوماً إلى أنني أقدم توقيت ساعتي خمس عشرة دقيقة دائماً!..

ـ أجبتها: لا أدري!.. أظن بأنها عادة!.. ربما أستبق الوقت أو أتوق إلى المستقبل.. ماذا عنك..؟!..

ـ أجابت: أنا أيضاً لا أدري!.. أظن بأنني أخالف البشر فقط..!..

يومها خلعت ساعتي ولبستها في يميني مثلها.. وقدّمت هي ساعتها خمس عشرة دقيقة مثلي.. لنسبق سكان لندن وليصبح توقيتنا خاصاً بنا وحدنا..

لكن توقيتنا الخاص بات يؤلمني، ففي كل مرة أنظر إلى ساعتي، أفكر في الوقت الذي ستعود إليّ فيه..!.. أفكر في أسباب تأخرها.. ولا أصل إلى أي نتيجة.. وأغنية البيتلز تؤجج في داخلي الخوف والجوع والشوق أكثر فأكثر فأكثر..

Why she

Had to go I don't know, she wouldn't say

I said

Something wrong, now I long for yesterday

Yesterday

Love was such an easy game to play

Now I need a place to hide away

Oh, I believe in yesterday

فعلاً أنا لا أعرف لماذا عليها أن ترحل، هي لا تخبرني عن تلك الأسباب.. حقاً لطالما كان الحب في نظري لعبة سهلة، لكنني أحتاج الآن لأن أختبئ بعيداً.. بعيداً جداً.. لأن الحب بات أكبر مني بكثير، لم يعد الحب بالنسبة لي تلك اللعبة البسيطة!.. ولا أدري حقاً إن كان عمري هو السبب، أم أن امرأتي فعلاً ذات سطوة!..

في ليلة رأس السنة الماضية، وفي ضيافة جهاد ومادلين اللذين يستضيفانني في أغلب المناسبات.. قمت لأتلو عليهم، وعلى المجموعة الصغيرة من أصدقائنا المشتركين، قائمة بخططي التي سأقوم بها خلال العام الجديد... كان هذا طقس آخر ليلة من كل عام.. أذكر بأن مادلين سألتني ممازحة بعدما انتهيت من قراءة قائمتي الخاصة: ماذا عن الحب يا هذام..؟!.. ألا تحتاج إلى أن تحب..؟!..

أجبتها يوم ذاك بأن الحب ليس من خططي، لأن الحب يأتي بلا تخطيط..!.. وأظن بأنني كنت محقاً.. فحينما جاءني الحب جاءني على حين غرة، اعتراني بلا استئذان ولا تخطيط.. عندما جاءت حبيبتي، جاءت في ليلة لم أتوقع أن ألتقي فيها بالحب أبداً.. جاءتني بعد خطابي - الفاشل - ذاك بقرابة الشهرين... التقيتها في فبراير الماضي.. تواطأ فلنتاين وكيوبيد والمطر واللون الأحمر عليّ.. فلم أقدر عليهم ولا عليها، وانهرت حباً في شهر العشاق..

إلهي لكم يؤلمنا الحب أحياناً، الألم ليس إلا وجهاً

من وجوه الحب.. على الرغم من أنني لطالما آمنت بأن الألم هو ما يدفعنا لأن نبدع ولأن نكبر.. ولأن نزداد عظمة.. إلا أنني بتّ أؤمن بأن هناك مرحلة من مراحله.. ما أن نصل إليها حتى نصبح غير قادرين على إنجاز شيء!.. أوسكار وايلد قال يوماً بأن الألم يؤثر فينا ضعف ما تفعله بنا اللذة.. وأظن بأنه أصاب في ما قاله!..

أذكر بأنني قد سألتها يوماً إن كانت تعتبر ما بيننا حماقة..؟!..

ـ أجابتني ببساطة: وإن كانت!..

ـ أترتكبين الحماقات بلا شعور بالذنب تجاه نفسك..؟!..

ـ أنا لا أرتكب الحماقات، الحماقات هي من ترتكبني..!..

يومها أدركت تماماً بأنها امرأة متصالحة مع نفسها أكثر مما كنت أظن، عرفت يوم ذاك بأنها امرأة لا تندم، ولا تلتفت لمن يسقط خلفها.. امرأة تظن بأن الجرم هو من يرتكبنا، وبأننا لا نرتكب الجرم أبداً.. يومها اعتنقت

فلسفتها فيما يتعلق بالخطايا والحماقات، والجرائم...!.. اعتنقتها تماماً..

***

لطالما وجدت في مسارح الويست إند شيئاً من الحياة الأخرى.. شيئاً من السكينة.. والتسامي، شيئاً من الرقي، من الحنين، من الحرية!.. وقد كانت حبيبتي إحدى عاشقات مسارح لندن.. لذا دعيتها ليلة إلى أحب المسرحيات إليّ وأكثرها تأثيراً في نفسي... ذهبنا ليلة ذاك لنحضر مسرحية البؤساء لفيكتور هوجو.. ومع أنني قد حضرت المسرحية لعدد لا أذكره من المرات خلال قرابة العقدين إلا أن العرض، تلك الليلة، كان مختلفاً كلياً بالنسبة لي.. لم يكن عرض تلك الليلة كأي عرض سابق.. كان عرضاً استثنائياً!..

أذكر كيف تشبثت بذراعي أثناء غناء ذات الصوت الجبار بـ ..I dreamed a dream عندما وصلت إلى المقطع الذي يقول:

I was young and unafraid

And dreams were made and used and wasted..

شعرت بدموعها تنساب على كتفي ولأول مرة..!..
كان بكاؤها شامخاً، سامقاً.. مكابراً.. مهيباً!.. لحظتها أدركت بأن أكثر لحظات الرجل أماناً هي حينما يحيط امرأته بذراعيه، حينما تشغل امرأته صدره، عندما يحتضن رجل امرأةً "يحبها"، يشعر بأن الحياة تحتضنه بشدة.. تحتضنه بحب!..

لم أعرف يوماً بأن هناك نوعية من المشاعر، يتجاوز بها الرجل اللذة، يتجاوزها إلى مرحلة ما فوق اللذة.. إلى مرحلة الأمان والسكينة والروحانية.. هذه المشاعر لم أشعر بها إلا من خلالها هي، هي وحدها من أوصلتني إلى هذه المساحة الشاسعة من التجلي..

عابرات الأسرّة، لا يشعرنني بالذنب أبداً.. لكنهن لا يخلقن بي شيئاً.. عابرات سريري ينتهين ما أن يغادرنه!.. يرحلن من دون أن يخلفنَ في داخلي أي شيء.. أما هي، فتوشم على جسدي في كل مرة تغادر فيها سريري وشماً لا يمحى.. في كل مرة تتركني فيها

وترحل تُبقي لي شيئاً منها.. شيئاً ليس كأي شيء!.. ولا أفهم فعلاً كيف تمارس هذا عليّ!..

عندما رحلت آخر مرة.. عرفت بأن شيئاً ما في شبابي لا يزال يشقيني، شيئاً ما لا يزال عالقاً.. متشبثاً بركن قصي.. يأبى أن يرحل، أن يتبخر، أن يحل بعيداً عني..

عرفت بأنني قد استنزفت كل محاولاتي المتاحة للحصول على السعادة في الحياة، عرفت بأن هذه المجهولة إن رحلتْ فجأة، سأفقد أهليتي في أن أكون إنساناً كاملاً.. بتّ أدرك بأنه سيطوى قيدي من الحياة لو تركتني..!.. لكنني لن أطلب منها البقاء أبداً.. أنا رجل لا يطلب.. أنا رجل يأتيه كل ما هو مقدّر له.. بلا طلب، ولا سؤال.. ولا استجداء للقدر.. لن أستجدي القدر يوماً، لن أسأله حباً.. ولا مالاً ولا مجداً..

قدِّر لي أن أحيا شقياً بانتماء ومن دون انتماء.. أن أعيش فراغاً داخلياً، وأن أموت ممتلئاً بالفراغ.. سأمضي مثلما قالت شاعرة فلسطين "لا أنجزت هدفاً ولا

حققت غاية، عمر نهايته خواء فراغ مثل البداية".. فهذا ما قدّر لي..

التقيت في عيد الشكر الماضي بأحد أشهر وجوه المجتمع المخملي البريطاني بحيث إننا حلّينا كضيفين على أحد عمالقة الصحافة اللبنانية الذي أقام مأدبة " شكر " كبيرة تليق بمقام المناسبة وبمقام ضيوفه أيضاً... بعد حوار طويل عن السلام وإسرائيل وفلسطين وخارطة الطريق سألني "الضيف" إن كنت لبنانياً كمضيفنا المبدع..

ـ قلت له باقتضاب: كلا، لست بلبناني!..

ـ من أين أنت؟!..

ـ الأرض كلها وطني، والبشرية أسرتي.. مثلما كان يؤمن فولتير..

ـ قال مبتسماً: ألا تحب وطنك؟

ـ أجبته باقتضاب: ربما أحبه!..

ـ أتدري أن شكسبير تساءل يوماً إن كان أحد قد بلغ حداً من الوضاعة كي لا يحب وطنه؟.. لو كان شكسبير حياً لوجه سؤاله هذا لك..!..

ـ قلت له بسخرية: لو كان شكسبير حياً لتفهم أسباب وضاعتي من دون أن يوجه سؤاله إلي!..

ـ قال ضاحكاً: إذاً أنت لا وطني!.. وهل أنت لا دينيّ أيضاً..؟!..

ـ لا أدري إن كنت ستعتبرني لادينياً أيضاً..!.. أنا أؤمن بوجود الله حتماً.. قطعاً لست بملحد..

ـ كيف تؤمن بوجود الله إن لم يقنعك أحد أديانه!

ـ قال مصطفى محمود أحد أشهر المفكرين العرب بأننا نعرف الله بضمائرنا لا بعقولنا، وضميري يشعرني بالله فعلاً..

ـ لكنك لا تمارس تعاليم أي دين لله الذي تؤمن بوجوده، فكيف تنتمي إلى الله بلا دين تنتمي إليه..؟!

ـ والإنسانية دين جامع لكل الأديان يا عزيزي.. لذا أعتنقها!..

حينها ابتسم سيد لندن ابتسامة اقتناع باردة، أما أنا فشردت بعيداً عنه.. مستشعراً ألماً خفيّاً بات يتفاقم في أعماقي، ألماً لم أفهم كنهه يوماً..!

***

التقيتها أول مرة في ليلة ماطرة، خرجت من مكتبي قرابة الواحدة صباحاً إلى حانة قريبة.. ظننت بأن كأساً سيريح أعصابي.. وسيجعلني أسترخي بعد ليلة طويلة من المخاض الأدبي، لكن شيئاً ما دفعني لأن أخرج سريعاً من الحانة.. ظننت بأنني نسيت هاتفي المحمول في مكتبي.. فخرجت منها مسرعاً.. كان الجو ماطراً ولم أكن أحمل مظلة معي.. فركضت تحت المطر، وعندها ظهرت لي فجأة من شارع جانبي صغير فاصطدمت بها بقوة!..

تناثرت أشياؤها على الأرض وكاد كل منا أن يقع لولا أننا تمسكنا وساعدنا بعضنا بعضاً على الثبات.. انحنيت إلى الأرض لأساعدها في لملمة أغراضها وأنا أعتذر وهي تجيبني بالإنجليزية، لا بأس!.. لا عليك!.. أنا أيضاً لم أنتبه إليك!.. استوقفتني الكتب التي كانت تحملها Beyond Good & Evil وThus Spoke Zarathustra بالإنجليزية لنيتشه.. وملحمة جلجامش بالعربية..!.. عندها رفعت عينيَّ إليها، والتقت عيوننا.. فشعرت بالحياة تجتاحني!.. خيِّل إليّ أنني أشعر بروحها تغادر جسدها وتتلبس جسدي!.. ظللنا قرابة الدقيقتين نتأمل

بعضنا بعضاً على الأرض وتحت المطر من دون أن يرمش لنا جفن!..

ـ سألتها بدهشة وبالعربية: أألتقينا قبلاً..؟!..

ـ أجابتني بعينين لامعتين: أظن بأننا فعلنا!..

ـ متى؟

ـ في عصر ما!..

ـ أتؤمنين بالكارما؟!..

ـ أظن بأنني بتّ أؤمن بها!..

عندها ابتسمتْ هي وابتسمت أنا ابتسامة لا شك عندي من أنها كانت أصدق ابتساماتي على الإطلاق!.. مددت يدي وساعدتها على الوقوف.. أخذت أتأملها تحت عمود الإنارة الذي كنا نقف بجواره.. بشعرها الأسود المبلل.. وعينيها السوداوين اللتين كانتا تجاهدان للبقاء مفتوحتين تحت انهمار المطر.. كانت ترتدي معطفاً أحمر طويلاً، وشالاً صوفياً ملوناً يحيط بعنقها.. وعلى رأسها قبعة صوفية صنعت من قماش الشال ذاته.. وخلف ظهرها تظهر حقيبة جلدية سوداء خاصة بحمل آلة الكمان..

ـ قلت لها وأنا أتأمل وجهها: أتدركين كم وجهك مريح!..

ـ رفعت حاجبيها بدهشة ومن ثم قالت ساخرة: مريح!.. لكم تجيد الغزل!..

ـ سألتها مبتسماً : أأمطرتك السماء..؟!..

ـ ربما!.. ألم يتساءل السياب يوماً "أي حزن يبعث المطر".؟!..

ـ فلنتفق على " أي حب يبعث المطر"..

ـ القصائد نصوص مقدسة، لا يحق لأحد بأن يمسّها أو يتصرف بها!..

ـ تبدين ماطرة جداً..

ـ بل عاصفة للغاية..

ـ أنلتقي مجدداً..؟!..

ـ من يدري!..

ـ أين؟!..

ـ قد نلتقي في عصر آخر..

ـ وقد لا نلتقي!..

ـ ألا تؤمن بالكارما؟

ـ أؤمن بها فعلاً!..

ابتسمتْ ابتسامة ذات معنى، وتركتني خلفها من دون أن تعقّب، تركتني أرقبها وهي تبتعد عني كملاك أبيض تحيطه الغيوم والضباب، ملاك يحتضن بذراعه ملحمة سومرية عريقة، ويحمل كماناً فوق ظهره ليختفي تحت المطر مثلما ظهر!

***

تضحك هي في كل مرة أخبرها كم هي "مريحة"... تظن بأنني أسخر منها.. لكنني جاد جداً في وصفها! في وصفها أنا لا أعبث أبداً!.. قالت لي مرة: صدّقني لا يتغزل رجل بامرأة واصفاً إياها بالمريحة!.. لا يصفها بذلك في اللقاء الأول على أقل تقدير..!..

قلت لها بحرج: كنت أقصد بأن جمالك مريح!..

فضحكت حتى دمعت عيناها، لذا بتّ أخبرها كم هي مريحة في كل مرة أشتاق فيها لصوت ضحكتها.. لتضحك من أعماقها.. وتهتز أعماقي معها فتطير في داخلي ملايين الحمائم البيضاء.. لتحلّق وتحلق وتحلق وتحلق ولا تحطّ إلا بعد أن تتركني وحيداً من دونها..

قالت لي مرة وهي تعبث بشعري: أتدري!.. تعلمت أن لا أثق برجل ناعم الشعر..!.. ناعم الشعر دائماً ما يدّعي الحقيقة!..

ـ وما هي الحقيقة؟!..

ـ قالت بسخرية: الحقيقة المطلقة الوحيدة التي أعرفها معك هي أنني مريحة!..

ـ قلت ضاحكاً: إرجعي إلى ذاتك، ففي داخل الإنسان تسكن الحقيقة..!..

ـ لا أفهم كيف تبدو أوغسطنيوسياً أحياناً، على الرغم من أن أوغسطنيوس يماسس سقف الإيمان الذي لا سقف له عندك!..

ـ قلت لها: لا يهم، ما يهمني هو أن أماسس سقفك أنت!..

لكنني كنت أدرك بقرارة نفسي أنها امرأة لا سقف لها ولا حد، امرأة تتجاوز كل المعتقدات.. كل البديهيات.. كل المسلمات.. تأرجحك ما بين أقصى نقطة في اليقين إلى أقصى نقطة في الشك.. امرأة لا قدرة لك على مجاراتها ولا رغبة لك في مناورتها..

فتوقعك في فخ الرغبة والمقدرة مجدداً.. لتتلاعب بك الأضداد لعبتها الطويلة ولا تصل معها إلى أي حل!..

هي امرأة تثير بي الفرح، مثلما تثير فيّ حزناً لا يفهم، لكنني أمقت الحزن.. فالحياة لا تحترم الحزانى ولا تحترم أحزانهم، وأنا رجل يحتاج لأن تقف الحياة له احتراماً.. أنا رجل لن يحني رأسه للحياة.. وإن حطمتني الحياة فحسبي أني صمدت ولم أنهزم مثلما قالت سيدة فلسطين..

أظن أحياناً بأن الكتّاب يكتبون ليمرروا من خلال روايتهم رسائل خاصة لمن عبروا في حيواتهم!.. لذا بتّ أجدها كثيراً في سطوري، أبثّ لها في سطوري الشوق، والحزن.. والخيبة.. والخوف.. والحب والغضب بلا إرادة ولا اختيار... نحن لا نختار ما نكتب ولا نختلقه.. نحن ننقل الكلمات على الورق بطريقتنا، بصياغتنا.. فالكتابة وحي يوحى إلينا من حيث لا نعلم، لكن الكتابة هي صوتي الصارخ.. وفي الحب نحتاج لأن نصرخ بأعلى أصواتنا لنخيف القدر ونتحدى العالم، حتى وإن بحّت أصوات كثيرة بلا نتيجة ولا فائدة!..

يخيل إليّ أحياناً بأن الأقدار تسرق من أفواهنا التوقعات لتدوّنها كأحداث مستقبلية.. لذا بتّ حريصاً جداً مع القدر.. أصبحت لا أتفوّه بأمور قد يخطفها من فمي ليقيدها في دفتر المستقبل ويحققها من دون رغبة فعلية مني بأن تتحقق!..

فولتير الذي كان يؤمن بأنه "لا يضيره أن ليس على رأسه تاج ما دام بيده قلم "كان يدرك بأن الكتابة هي سر الخلود، كان يدرك بأن أعمالنا الأدبية هي التي تخلّدنا.. وإن كان الخلود لا يحقق لنا في حياتنا السعادة..فالوجع هو طريق العظماء.. الشقاء يكتب على كل مبدع، لأن للخلود فاتورة يجب على العظيم دفعها.. فلا خلود بلا ثمن!.. ولا إبداع بلا شقاء.. السعادة لا تدفعنا لأن نكتب أدباً على الإطلاق!.. الأدب هو ما يحزننا، ما يبكينا.. الأدب عميق الجذور في فلسفة البكاء..

حينما غادرت الرياض قبل عقدين، كنت مؤمناً بأن البكاء من شيم النساء.. لكن الحياة علمتني أن البكاء من شيم الأسوياء.. وإن كنت لا أظن نفسي سوياً، لا

أظن ولا أهتم!.. فمن يكترث لأن يكون سوياً في زمن لم يعد للأسوياء فيه أية مقاييس!.. في هذا الزمن، نحن لا نميّز ما بين الأسوياء والمنحرفين.. فمظاهر النوعين باتت تتشابه، وسلوكياتهم تكاد أن تصبح ذاتها..

أظن بأنني قد تجاوزت فكرة أن أعيش لأن أثبت للآخرين بأنني سوي كما يفعل كل رجال العرب الذين يقضون حيواتهم ليثبتوا لمجتمعاتهم أنهم أسوياء.. وكأنهم يولدون وهم موسومون بهذه التهمة التي يتوجب عليهم إنكارها وإثبات براءتهم منها..

أنا أقرّ، أعترف.. وأتباهى بأنني أمارس بعض السلوكيات اللاسوية!.. ولا تخجلني ممارستي لها، لا تخيفني ولا تنقصني.. فالرجولة لا تحتاج إلى برهان.. بينما الإنسانية تحتاج لأن نبرهن عليها في كل لحظة!.. أن أمارس بعض السلوكيات اللاسوية لا يعني أنني رجل لا أخلاقي، ولا ينقص من إنسانيتي شيء، على العكس.. أظن بأنه يدعمها بشكل ما.. وأنا أقدّس كل ما يدعم إنسانيتي..

في ليلة ما، سألت صديقة كاتبة، لماذا تكتبين!..

أجابتني: لأن الكتابة مؤلمة وألمها يشعرني باللذة!..

ابتسمتْ حينها، وصمتُّ!.. كنت أفكر لكم يتقاطع الجنس والكتابة معاً، فكّرت في حمى الكتابة التي ما أن تجتاحني حتى أعمى عن كل شيء عداها، مثلما أعمى عن كل شيء عدا الجسد الذي بين يدي عندما تنتابني حمى الرغبة!..

شبق أنا في الكتابة مثلما أنا شبق في الحب،.. مثلي كمثل معظم الكتاب.. فمعظمهم يتزودون بالكتابة للحب، ويتزودون بالحب للكتابة..

صديقتي التي يشعرها "ألم الكتابة باللذة" هي ذاتها المرأة التي تتلذذ ألماً في فراش تتوحش فيه وتتخلى فيه عن كل شيء عدا أنها امرأة!..

الكتابة توحّش، جموح، بربرية.. ثورة، انقلاب وعشوائية!.. الكتابة اعتناق وانعتاق..

اعتناق مع ذواتنا وانعتاق منها، همجية تجمع ما بين الألف والتاء والعين والقاف بكلمتين لهما الحروف الأبجدية ذاتها.. ومعنيين لا يجمعهما إلا حالة الكتابة فقط..

أنا لا أكتب لأثبت طهري ولا لأمارس عهري.. أنا أكتب لأتنفس، لأعيش، لأنام وفي غدي شيء ينتظرني!.. الموسيقى والأدب هما كل ما أملك في هذه الحياة.. لكن أقدار الكتاب والموسيقيين شقية.. شوبان الذي توفي في عامه التاسع والثلاثين وموزارت الذي توفي وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره كانا موهوبين.. موهوبين جداً وكانت الموسيقى هي الحياة واللذة وأجمل الأحلام بالنسبة لهما.. لكن الموت لم يمهلهما طويلاً وكأن الموت ينتشل كل من يشيع في الحياة.. النشوة.. والسمو.. والروحانية والألق..!..

أنا اليوم أعرف بأن الأقدار التي تفقدنا عقولنا بالحب والفن والأدب هي أقدار تستحق أن تحترم... أنا اليوم أدرك أن الكتابة هي ضرب من ضروب الجنون، لكن أن تشاطر حياتك فناناً أو كاتباً جامحاً، جنون لا يضاهيه آخر!..

دائماً ما أفكر بواسيني الأعرج الذي تساءل في طوق الياسمين "كم هو مضن أن تعشق امرأةٌ فناناً أو كاتباً مهووساً بالحياة!".. أفكر!.. ألم يلمس يوماً أديب الجزائر الكبير كم هو مضن أن يعشق رجل فنانة أو كاتبة

مهووسة بالحياة؟!.. أم أنه مثلي، يرى بأن الفنانات والكاتبات هن اللاتي يسببن للحياة التعب والجنون والهوس؟!..

تذكرت جهاد، الذي سألته مرة في ليلة ضيق..

ـ ما الفاصل بين النساء والجنون!..

مد جهاد يده إلى كتفي ممسكاً بشعرة عالقة على معطفي الشتوي، ورفعها أمام وجهي قائلاً باختصار:

ـ شعرة!..

ولم يكذب جهاد فيما قاله أبداً، فالنساء هن اللاتي يتسببن لنا بفقدان عقولنا.. هن اللاتي يسرقن الواقع منا، ويجردننا من كل يقين.. النساء لسنَ إلا أحد مسببات العته، وألذ وسيلة للمتعة، أمرّ جروحنا وأحنّ لحظاتنا.. إيماننا وكفرنا، طاعاتنا وخطايانا..

النساء هن اللاتي يشكلن حيواتنا، وهن اللاتي يتشكلن فيها فيمتزجن معها بخضوع كاذب، حتى نتيقن من أننا من خلق هذه الحياة ومن أدارها بسذاجة رجولية لا تضاهيها في الدنيا سذاجة..

النساء في أقصى درجات الحب يعمينَ ويتهورنَ، لكن الرجال في أقصى حالاتهم يجنّون!.. في كل قصص

التاريخ لم أقابل قصة جنّت فيها امرأة بسبب الحب.. النساء وعلى الرغم من تطرفهن العاطفي إلا أنهن يحافظن على عقولهن حتى في أكثر حالاته حدة.. في الحب قد تفرّط المرأة بسمعتها، بسعادتها، بكرامتها وبكبريائها وحتى بعائلتها.. لكنها لا تفرّط بعقلها أبداً وإن لم تستخدمه.. وهنّ غالباً لا يستخدمن عقولهن في الحب..

بعض النساء يتسببن بانعدام رغبة بعض الرجال للحياة، وبعضهن يزدنَ الرجال تمسكاً فيها.. وحبيبتي خليط من النوعين، فبها أموت ولها أعيش، بغيابها أتوق إلى موت ينتشلني من عذابات الترقب، وبوجودها أخشى أن تمرَّ لحظات عمري سريعاً فأصلّي لها لأن تتمهل..

يقال بأن عمر علاقات الحب المفتوحة أطول بكثير من عمر الزواج.. لأن حالة التوجس من الخسارة تبقي العلاقة في أوج حالاتها.. لكن حالة التوجس هذه تفقدنا القدرة على النوم وعلى التنفس... حالة الخوف من الفقد تدخلنا في دوامة اللااستقرار، فنمشي حفاة فوق سعير الشوق، ونتلظى بناره حتى نحترق تماماً ونفقد الإحساس بكل شيء..

وأنا رجل يخفيه العيش بلا إحساس، أنا رجل لا

يبقيه حيّاً سوى مشاعره.. مشاعري هي التي تجعلني أعزف وأكتب.. وأنا لا أعزف إلا ما أتشوّق لسماعه ولا أكتب إلا ما تغريني قراءته..

"if there is a book that you want to read it, but hasn't been written yet, then you must write it"..

أتحسس مقولة Toni Morrison المنقوشة بدقة على محفظة سجائري في كل مرة أحتار فيها فيما سأكتبه يوماً... لا أعرف لماذا نقشتْ هذه المقولة على المحفظة!.. يخيل إليّ أحياناً أن مقولة "عبقرية" كهذه من الواجب أن تنقش على مبنى أعرق المكتبات العالمية، وليس على محفظة سجائر بلاتينية... أظن بأنني اخترت أن أنقشها على محفظتي لأنها دائماً ما تكون على مرمى من عيني.. لأقرأها كثيراً، ولتلهمني دوماً..

لكنني اليوم لا أعرف ما الذي أريد قراءته حتى أكتبه!.. اليوم أنا على مشارف صفحاتي الأخيرة.. في رأسي مئات الأفكار التي تزداد اصطداماً ببعضها يوماً بعد

يوم.. وهذه الثورة لن تجعل روايتي هائجة فحسب، هذه الثورة تكاد أن تفقدني عقلي.. هذه الثورة تجعل أعصابي في حالة غليان، تجعل أفكاري تستعر ومشاعري تتأرجح بين أقصى التطرّفين، بين الحدة واللين، بين الصلابة والهشاشة..!.. مشاعري المتطرفة جداً في شتى حالاتها..

عندما أكتب، أشعر وكأن عبئاً ثقيلاً يجثم فوق صدري، الكتابة تشعرني وكأنني في سباق "ماراثون" طويل، أعدو فيه وأعدو وأعدو حتى أصل إلى خط النهاية وأنهار..

في كل مرة أنتهي فيها من كتابة رواية ما، أُصدم بخسارتي لجزء كبير من وزني وكأنني لا أقتات أثناء الكتابة إلا على الحروف والكلمات.. حالة الكتابة لا تدخلني في حالة من العزلة فقط.. حالة الكتابة تقحمني في مواجهة ضارية مع مشاعري وأفكاري، لذا أنغمس كلياً فيها من دون أي مراعاة للجسد الذي يضم روحي ويبقيها ناطقة..

في مرحلة الكتابة، لا أشتهي الطعام أبداً، أدخن بشراهة، أقرأ بعشوائية وتشتّت.. أعزف ببربرية قصوى..

ولا أذوق طعم النوم إلا بعدما أثمل أو أنهار فوق البيانو لأستيقظ بعد أربع أو خمس ساعات وآثار مفاتيحه قد تركت آثارها على ملامح وجهي المرهق..

هذا الجنون الذي أعيشه يزداد اضطراباً. لكنني لست بقادر على أن أكبح جماح جنوني.. في الكتابة أنا لا أتحكم بنفسي أبداً، قوة خفية تتلاعب بي أثناء الكتابة فأغدو بوهيمياً للغاية، لكن هذا لا يخجلني، فلطالما آمنت بأن وحي الكتابة ما هو إلا حالة من حالات السحر... الكتّاب ما هم إلا مجموعة من الممسوسين، ومن يصاب بمس الكتابة لارقية تشفيه ولا علاج ينقذه من ذلك المس..

وأنا ممسوس جداً بالموسيقى والأدب، بوجهيّ الفن الجميل الذي لا أفهم لماذا يباغتاني في الوقت ذاته دائماً، حينما أكتب.. تتراقص فوق رأسي النوتات الموسيقية، وعندما أعزف.. يثور بركان أفكاري ولا يهدأ إلا بعدما تسيل أفكاري حبراً..

لكنني وعلى الرغم من "شوبانيتي"، ووفائي وولائي للعظيم شوبان.. إلا أنني بتّ أحن مؤخراً للألحان

الشرقية.. الألحان التي لم ولن يقدر العرب على أن يخلقوا شيئاً دافئاً باستثنائها!.. باستثناء تلك الألحان..

أتوق لصوت العود والقانون.. للموشحات الأندلسية.. للمقامات النهاوندية، للنوتات المشمسة.. بعيداً عن أجواء باخ، وهايدن، وموزارت وبيتهوفن.. بعيداً عن سيدي شوبان..

لا أعرف إن كان "توقي" الحاد هذا هو مؤشر خطير أم لا، لكنني بتّ أخشى كلَّ ما يربطني بشرقيتي، بعروبتي.. لكن الموسيقى لا جنسية لها ولا جذور قومية حتى وإن نسبناها إلى رقعة أو عرق.. فلماذا أخشى الموسيقى الشرقية وكأنني أخشى أن تستدرجني وتغرّر بي فأعود إلى حب أظن بأنني قد اجتثثته من قلبي كلياً..

أحنّ إلى "أيها الساقي" لابن زهر.. و"جادك الغيث" لابن الخطيب و"لما بدأ يتثنى" للذي لم يعرف!..

أشتاق إلى موسيقى ذات شجن، إلى قصائد روحانية، إلى موشحات صوفية.. وإلى شعر ماجن.. أتوق إلى ليالي طرب عربية، دافئة وحنونة.. وحادة الحزن..!..

كم هم ملعونون العرب لأن شيئاً من أراضيهم ومن تاريخهم يظل فيهم مهما حاولوا استئصاله.. العروبة مرض وراثي لا يرجى برؤه، مرض نتعايش معه أينما كنا وحيثما ذهبنا، فلا قدرة لنا على التخلص منه حتى وإن رغبنا وسعينا وتطبّبنا..

وموسيقى العرب نوع من أنواع السحر الذي لا يفهم ولا يحلّ.. وأنا رجل لا يسحره إلا الفنّ!..

تأخذني بعض المقطوعات لما وراء هذا الكون، بعض المقطوعات برزخية بلا أدنى شك، عندما تستمع إليها تشعر بأنك عالق في مساحات ممتدة النهايات حتى لا تنتهي..

بعض المقطوعات تخلبنا.. وتذبحنا.. وتحيينا..!.. أذكر كم كانت ليلتي روحانية حتى درجة البكاء عندما استمعت إلى مقطوعة Silk Road لكيتارو لأول مرة.. شعرت ليلتها وكأنني عبرت من خلالها رقيع مروراً بالقيدوم والماروم وأرفلون وهيفوف والعروس وحتى السماء العجماء.. ليلتها أقسم بأنني شعرت بمروري بالسموات السبع كلها.. كلها..

واليوم، لا أزال أستمع إلى طريق الحرير بالشّبق الروحي ذاته.. والحاجة ذاتها..

الموسيقى حالة لا تفهم.. لا تفهم!.. حالة تجعلنا نشعر بكل ما يمكن أن نشعر به.. الموسيقى تجرّدنا من كل ما هو مزيف.. تزيل عنا التزييف ،التدليس والبهرجة الكاذبة.. الموسيقى حالة من حالات الخلق الإنسانية كالكتابة تماماً؛ فتأليف المقطوعات كتأليف الكتب.. كلاهما يتطلبان منك أن تتوحد مع ذاتك، أن تنسلّ من كل شيء عداك.. أن تتحرر روحك من جسدك فتتسامى حتى تتبخر.. فتصبح أثيراً ولا شيء سوى الأثير..

وهي مثلي!.. مريضة بالموسيقى مثلي!..

لذا أهديتها يوماً مجموعة إصدارات الموسيقار الهولندي العظيم أندريه ريو الكاملة،.. كنت أعرف أنها تحب الكمان.. ليلتها كنا نسهر معاً، وقد كانت ترتدي فستاناً أبيضَ كعروس متوّجة.. كنا على طاولة الطعام.. نتناول الزيتون والجبن الأبيض بالشوكة والسكين برقي لا يليق بمن يتناول الزيتون والأجبان كعشاء!.. مستمعين إلى إحدى مقطوعات شوبان بصمت مثير..

ـ قالت: مقطوعة جميلة!..

ـ سألتها: أتعرفين لمن تعود..!

ـ أجابت بابتسامة من دون أن تنظر إليّ: Nocturne in C sharp minor by Chopin..

أدهشتني جداً وأثارتني كثيراً!.... فلا شيء يضاهي امرأة تحب الموسيقى وتفهمها.. وربما تخلقها!.. بل لا شيء يضاهي امرأة تميز مقطوعات شوبان وتدرك على أي نوتة موسيقية عزفت!

ـ قلت: عندما رأيتك أول مرة، كنت تحملين كماناً على ظهرك..!..

ـ ألا تحب الكمان؟..

ـ أحبّ الناي!..

ـ أشارت إلى أصابعي: والبيانو؟!..

ـ سألتها مبتسماً لفطنتها وقمت متجهاً إلى غرفة المكتب: بالمناسبة!.. أحضرت لك هدية منذ فترة طويلة.. لكنني أنسى في كل مرة أن أعطيك إياها!.. فلنقل إنك ترحلين قبل أن أعطيك إياها!..

ـ قالت بسخرية: ربما لا تجدني بعدما تعود!..

أحضرت هديتها التي قبعت داخل مكتبي لأسابيع

طويلة بانتظار أن تبقى لتأخذها، وضعتها أمامها من دون أن أتكلم وعدت إلى مقعدي..

رفعت حاجبيها بتعجب عندما فتحت صندوق الهدية، أخذت تقلّب ألبومات أندريه ريو بدهشة..

- أندريه ريو!..

- حدسي أنبأني أنك تهوين الفالس..

- ولما الفالس بالذات؟!..

- قلت لي ذات يوم ونحن نستمع إلى "ليالي الأنس في فيينا" إنك تفضّلين هذا النوع من الموسيقى، ولا يجيد أحد الفالس كأندريه ريو..

- ومن أفضل أيضاً؟!..

- أتعرفين من أفضّل أنا؟!..

- أممم، شوبان، فولتير.. فيروز.. درويش، فرانك سيانترا، البيتلز، الشاي الإنجليزي.. كنزات رالف لورين.. وبدل أرماني!..

- ضحكت: أتفتشين ملابسي؟

- شيء من هذا القبيل!..

- هذا ينبئ أنك لصة!..

- ابتسمت ابتسامة ذات معنى: وماذا أيضاً..؟!..

اتكأت على مرفقي ممسكاً بذقني: فلنرَ!.. أمم.. تعزفين الكمان.. تصلّين صلاة لا أعرفها!.. تحبين سعدون جابر، عراقية.. وتعتنقين فلسفة نيتشه!..

ـ وماذا بعد؟!..

ـ ورسولة..!..

رفعت حاجبها: رسولة شك؟!..

ـ رسولة حب وإلهام ويقين..

ـ لكم تجيد الغزل!..

تظنّ هي أنني أجيد الغزل، ولا تدرك كم تجيد البعثَ، بعث السعادة والنشوة والأمل.. لا تدري كم تشعرني بالحياة.. أنا التوّاق إلى الحياة والغارق فيها حتى آخري.. المتعطش والجائع لكل لذاتها على الرغم من انغماسي فيها..

يؤمن الكثيرون بأن الانغماس بأمر يجعلنا نتشبع به، لكنني أظن بأن الانغماس والتشبّع لا يحكمهما قانون.. ولا يؤديان بضرورة الحال إلى نتيجة واحدة!.. فمفهوم اللذة أشد تعقيداً مما يبدو عليه..

نحن لا نصل إلى اللذة بتحقيقنا لما نتوق إليه ونرغب به، فاللذة تكمن في الحرمان أحياناً.. كما أن للتحقق

والوصول لذة ونشوة أخرى.. مفهوم اللذة معقد إلى درجة تتجاوز إدراكنا بكثير..

أنا لا أفهم حاجاتي، لا أفهم لماذا أتوق إلى بعض الملذات.. وإلى الكثير مما لا يتوق إليه سواي..!.. أنا رجل تحكمه الأفكار الطارئة.. والرغبات الملحة.. والنزوات التي لا تفهم ماهيتها ولا يعرف ما هو أساسها..

لكنني وعلى الرغم من كل هذا، لا قدرة لي على مجاراتها "هي" في جموح أفكارها وغليان مشاعرها.. هي التي تثور بلا سبب، وتستكين من دون أن تترك لدي أدنى فكرة عن سبب سكونها المفاجئ بعد ثورة غضب أو حالة عته طارئة!

أنا لا أعرف.. إن كان توق الرجال للنساء الغامضات المتناقضات هو توق فطري.. أم أن شيئاً ما يدفعنا نحو النساء اللاتي لا ندرك ما وراءهن، ولا يدركن أنفسهن ما يرغبن به فعلاً..

يعتقد الرجال بأنهم أذكى بكثير من النساء، مع أن عالم النساء يظل بالنسبة إلى الرجال عالماً لا يفهم.. إلا أن الأنثى، وعلى الرغم من تعقيدها، تظل بالنسبة للذكر

هي الجنس الأدنى ذكاءً، حتى في عالم الحيوانات الذي يبدو بأن طبيعة ذكوره لا تختلف كثيراً عن طبيعة ذكور البشر..

أفكر أحياناً بالفرق ما بين رجولتي وذكورتي.. الرجولة والذكورة يحكمهما الجدل الذي لم يحسم في عالم الشرق خاصة عند العرب المتضخمين "الرجولة" بوهمية..

تلقيت في إحدى السنوات طلبات تعيين كتاب جدد في الصحيفة، عرضها عليّ جهاد الذي يثق باختياراتي للمواهب الشابة، عرض عليّ طلباً مرفقاً ببعض المقالات لأطّلع عليه..

عند قراءتي لنموذج الطلب المعبّأ من قبل الكاتب، تفاجأت بشطبه لخانة الجنس المحددة بإما أنثى أو ذكر، وكتابته فوقها لـ "رجل "!.. استوقفتني الكلمة التي لم أفهم ما الذي رغب الكاتب بإيصاله من خلالها..!..فما معنى أن يكون جنسك "رجلاً ".. يومها، حاولت أن أنسج صورة في خيالي للكاتب الذي لم يرفق صورته الشخصية مع سيرته الذاتية، وكأن رجولته تغنيه عن أية ملامح..!..

عندما التقيته، كنت أبحث فيه عن "الرجولة " التي يزعمها.. لم يكن في أفكاره ما يفتخر به كرجل.. ولم يكن جسده قوياً ولا ضخماً.. كان شاباً هزيلاً بأفكار رجعية.. وأظن بأن أفكاره الصدئة تلك هي التي خيّلت إليه برجولته!..

عندما خرج من مكتبي، تذكرت ورقة كانت قد كتبتها لي... فتحت درج المكتب الذي كنت أحتفظ في داخله بقصاصات ورق كانت تتركها لي "هي" في الشقة التي كنا نلتقي فيها.. قرأت الورقة التي كتبت لي فيها.. "نفخت الروح في جسدي فاستيقظت قبلك.. سبقتك إلى الحياة هذا الصباح.. لذا سأهرع إلى الحياة قبل استيقاظك.. صباح الخير يا آخر الرجال المحترمين!"..

آخر الرجال المحترمين!..

من قال لها بأنني آخر الرجال المحترمين..!.. أنا لست آخرهم ولا أولهم ولا حتى منهم.. أنا رجل لا يفخر برجولته ولا يكترث لها.. فلما تصرّ هي على أن تذكّرني بها.. أتستفزني.. أم تغازلني.. أم تدعوني إلى التدبّر برجولتي المحترمة..!..

هي التي تهرع إلى الحياة بتوق مثلي، لماذا تحاول

سلبي من الحياة وسلب الحياة مني..!.. لماذا تغيرني.. وكيف تشككني بكل يقين..؟!..

هي التي تسبقني إلى الحياة في كل صباح نقضيه معاً وكأنها تخشى أن تظل روحها بعيدة عنها.. وأنا الذي أستيقظ في كل يوم على مضض.. وكأن روحي الكسولة تخشى أن تعاود جسدي.. وأن تسكنه!..

تؤرقني الحياة على الرغم من ولعي بها..

الحياة اللغز، هي مجموعة من المتشابهات المختلفات المتناقضات، فكلنا نعيش الحكاية ذاتها.. ولكل واحد منا حكايته الخاصة التي تشابه حكايات الآخرين وتختلف عنهم في الوقت ذاته.. تجمعنا كلنا قصة واحدة بتفاصيل مختلفة، وتختلف قصصنا بتفاصيل متشابهة.. وتظل الحياة سراً لا يفهم مهما حاولنا استيعابها..

أنا وهي.. أحلمٌ نحن أم رواية؟!.. أحلمٌ نسجته الملائكة، أم رواية أختلقها لاوعيّ فهيّئ إلي!..

سألتني مرة "هي"، قالت: لو افترضنا أنني لست

بشرية، هل تظن بأننا سنظل قادرين على أن نستمر معاً..؟!

ـ حتماً!..

ـ وكيف سيكون ذلك؟!..

ـ مثلما آمن هنيبعل، فإما أن نجد حلاً وإما أن نصنع واحداً..

ابتسمت: هاني بال!.. أتصدق خرافة هاني بال..!..

ـ هنيبعل ليس بخرافة..!..

ـ ألأنه قرطاجي شرقي..؟!..

ـ بل لأن الأبطال الحقيقيين لا "يخرفون".. هم "يؤسطرون".. لكنهم لا يخرفون..

ـ أستؤسطر يوماً..؟!..

ـ لا يؤسطر سوى العظماء..

ـ جونسون يقول بأن بعض الناس عظماء لأن المحيطين بهم صغار..

ـ أنا أؤيد قول ديكنز في أن العظماء الحقيقيين هم من يجعلون كل فرد يشعر بأنه عظيم.. وأنا حينما أكون معك أشعر بأنني كذلك..

والحق هو أنني لا أشعر بعظمتي إلا بوجودها أو عند إصدار أحد كتبي.. فعندما ينجح كتاب، وأقصد بالنجاح هنا هو أن تُباع منه آلاف النسخ وليس أن يقدسه النقاد.. شيء ما سيظل يرقص في داخلي حتى كتاب آخر.. شيء ما يجعلني ثملاً بنجاحي حتى نجاح كتابي الجديد أو فشله..

تماماً كما الحب، كلوعة الحب والفراق التي يظل العاشق متلظياً بها حتى حب جديد ينتشله من سكرة حبه القديم.. ليعود فارساً لحكاية حب جديدة..

حكاياتِ الحب التي نمر بها خلال حياتنا، هي تاريخنا الجميل، تصرفاتنا الحمقاء.. أحلامنا الغبية، خيالاتنا اللامعقولة في الحب هي ما تضحكنا عندما نتذكرها في وقت لا يضحكنا فيه شيء..

الحب الحقيقي هو ما يدفعنا لأن نبتسم على الرغم منا.. مهما كانت ذكرى هذه الحب قاسية، مهما كانت حزينة ومرة.. وكيفما انتهى هذا الحب.. يبقى الحب هو ما يضحكنا وما يجعلنا نبتسم بعد التئام جراحنا وعلى الرغم من الندوب..

لكن الحياة أحياناً تدفعنا لأن نتلوى ألماً حينما تجبرنا على أن نقدم على خيارات مرة..

وفي الحياة نمرّ بهذا المأزق كثيراً.. وما يخلفه هذا الموقف/المأزق في دواخلنا لا يمحى أبد الدهر بل يبقى يقظاً، دامياً، ملتهباً مهما مرّ عليه من الوقت.. هذه المواقف تجعلنا نقهر حتى نشعر بأن أرواحنا تكاد أن تتفتق من الألم..

أنا أعترف بأنني أوهن عندما أقهر.. تنهار قواي، وتتباطأ عضلة قلبي ويستكين لساني وتكسل أفكاري.. وهذا يخيفني جداً، هذا يزيدني غبناً حتى أشعر بأنني سأموت من شدة الغبن..

دائماً ما أفكر في إن كنت أستحق فعلاً كل هذا الكم من الهمّ والقهر.. أفكر في إن كان الله يعاقبني على شيء لا أفهمه بل على أشياء لا أفهمها، لكنني لا أفهم، فكيف أقر بما لا أفهمه..!..

أشعر أحياناً أن الله لن يعاقبني على تصرفاتي فحسب، أشعر أحياناً بأنه سيعاقبني على أفكاري وعلى مشاعري وعلى ما أحب وما لا أحب.. لكن الله أعدل من هذا، فلما تخالجني هذه المشاعر أحياناً..!..

يقال بأن "أحلك الساعات هي تلك التي تسبق الفجر"، لكن ساعاتي الحالكة تطول وتطول.. وفجري الذي انتظره لا يزال بعيداً.. فلا الظلمة خفّت ولا بصيص النور لاح.. وخوفي من أن أظل أسير الليالي القاتمة بانتظار صباح ينهكني.. تماماً كعودتها التي لا تفهم، فهي عندما عادت بعد غياب.. تركت لي على الأريكة في "شقتنا" رسالة.. سحبت الورقة بأصابع متلهفة ليطالعني خطها المرسوم برشاقة، كتبت: "تقول أحلام مستغانمي إنّ الأشياء الحميمة نكتبها ولا نقولها، فالكتابة اعتراف صامت.. وأنا اعترف أنني اشتقت إليك كثيراً ، نلتقي!"..

نلتقي!.. ما معنى أن نلتقي ومتى نلتقي..؟!.. أتظن أنني سأستمر كثيراً في لعبة التخمينات..؟!.. وأن صبري لن ينفذ..؟!..

أتستمتع في أن تبقى علاقتنا ضبابية الملامح..؟!.. ألا تخشى الغموض ككل النساء..؟!.. أتكتفي بهذا..؟!..

لطالما شعرت خلال العقدين الماضيين أن الزواج هو صورة من صور العبودية، اعتبرته حالة من حالات

التعاسة الاختيارية.. حالة مازوشية، بل أقصى حالاتها..

الغريب أنني لم أفكر في الزواج منذ أن غادرت الوطن، وعلى الرغم من مئات الفتيات اللاتي قابلتهن.. ألا أنني لم أشعر يوماً بأنني أرغب بالزواج من إحداهن، لكن حبيبتي قلبت كل توقعاتي وغيرت جميع طموحاتي، فبتّ أحنّ إلى أن يجمعنا بيتٌ "حقيقيّ".. لأن تفتح لي باب البيت عند العودة، لأن أغادر فراشي صباحاً وهي نائمة وأنا أدرك تمام الإدراك أنني سأجدها عند عودتي، وأنها لن تتركني أو ترحل..

الحب وحده هو من يدفعنا نحن "الإنسانيين" لأن نتخلى عن أي شيء ولأن نتخلى عن كل شيء مقابل من نحب وما نحب.. فعندما هجرت الوطن، وتركت العائلة مخلفاً كل انتماءاتي ورائي بلا ندم ولا التفاتة.. فعلت هذا لأنني لم أعد أحب ما كنت ومن كنت أحبهم.. فعلته لأنني أحببت امرأة لم أتمكن من الحصول عليها، فلم يعد لدي ما يستحق الندم ولم يكن لدي ما أخسره..

لكنني أفكر الآن، في لو كانت أمي على قيد الحياة عند رحيلي.. هل كنت سأتجرأ على أن أرحل..؟!..

أكنت سأتركها كما تركت كل الذين يمتّون إليّ بلا تفكير؟!..

أنا رجل لطالما أحب والده على الرغم من كل مساوئه وعيوبه، لكن علاقة الحب التي تربط بين الابن وأبيه.. ليست كعلاقة الابن بأمه!، الأم التي تظل نقطة الضعف الكبرى في حياة الرجل، حتى بعد رحيلها بعقود تظل ذكرى الأم ذات وقع.. وأي وقع!..

اليوم أنا لا أعرف إن كان والدي على قيد الحياة أم أنه رحل!.. لكن الرسائل التي تصلني عبر بريدي الإلكتروني المذيّل في آخر عمودي الأسبوعي بالصحيفة تشير إلى أنه لا يزال حياً.. الشتائم، واللعنات والاتهامات والتهديدات التي أتلقاها من أقاربي ومواطني دولتي.. كلها تشير إلا أن والدي لا يزال حياً.. فلو كان قد رحل لكنت قد عرفت من خلال رسالة حانقة ما!..

أتخيّل أن والدي لا يزال بعد قرابة العقدين من الغياب، رجلاً صلباً.. صارماً.. قادراً على أن يتخلى عن أقرب الأشخاص إلى نفسه من أجل الحفاظ على رضا الجماعة!.. لكنني أفكر أحياناً، في أي الرجلين

أقسى..؟!.. أأنا أم هو..؟!.. أهو الذي تخلى عن ابنه الشاب الذي لم يسعَ إلا لأن يتزوج من حبيبته.. أم أنا الذي قابلت تخليه عني بالتخلي عن كل شيء قد يربطني به..؟!..

والدي لم يسعَ يوماً لأن يمدّ لي جسور العودة بعد الرحيل، على العكس تماماً.. فأخوتي تكفلوا، ومنذ سنوات طويلة، بنقل لعنات والدي وسبابه برسائلهم الإلكترونية المشحونة بالكره والحقد والخجل من كوني أنتمي إليهم.. وهذا ما زادني بعداً وما زادني تمرداً وما زادني تخلياً..

من أكبر الجرائم التي قد ترتكبها في حق عائلتك وقبيلتك في مجتمع كذاك هو أن تختلف عنهم في أمر ما؛ فحبي لليلى كان معصية، وقراري بالزواج منها كان الخطيئة الكبرى.. إما الكتابة فهي الكفر الذي لن يغفره لي أحد..

فأن تختار الكتابة بحرّية في مجتمع كالذي كنت أنتمي إليه، يعني أن تعرّض نفسك للتكفير وللتهديد وللمساءلة الرسمية واللارسمية وللخطر..!.. فالكتابة مجازفة بالحياة والأمان والاستقرار والمال والولد.. وأنا

جازفت بكل شيء لأنني رجلٌ حرّ.. رجل لا يملك ما قد يخسره يوماً!..

اليوم، أظن بأنني رحلت لأعاقب عائلتي، ظننت أن غيابي سيجعلهم يموتون ندماً.. لكن رحيلي لم يخلّف إلا مزيداً من الرفض لي.. رحيلي أدّى لأن أكون الجاحد الأكبر.. أما ما فعلوه فلا يعد إلا حفاظاً على أواصر العائلة وعلى لحمتها..!.. ما فعلوه بي لا يعتبرونه خطأً ولا يعدونه جرماً إنسانياً.. عندما افتدوني.. افتدوني لمصلحة العائلة، وهذا يبرر لهم ما فعلوه حتى وإن كان الثمن سعادتي ومصيري ومصلحتي..

اليوم، وبقدر ما أكره تلك العائلة، بقدر ما أصبحت تواقاً لبناء واحدة.. أظن أنني لم أفكر في الزواج قبلاً لأنني لم أرغب بتكوين عائلة قد أظلم أحد أعضائها يوماً بقصد أو حتى من دون قصد..

لم أفهم يوماً كيف يرتبط الرجال.. ولا كيف يجرؤون على أن ينجبوا أطفالاً يتدخلون "إن لم يتحكّموا" بمصائرهم.. لم أفهم كيف يتعاملون مع كل هذا الاستبداد وكأنها غريزة إنسانية.. ومع أنني قررت يوماً أن أتزوج ليلى، لكن قراري ذاك لم يكن عقلانياً

أبداً، كان قراراً عاطفياً لا يستند إلا إلى مشاعري الجياشة ورغبتي المتأججة بها..

أعرف اليوم أنني لو عدت إلى الخلف، لم أكن لأتزوج ليلى.. لأن قراري بالزواج منها كان ساذجاً، حبي لها كان غراً لأنها كانت تجربتي الأولى، التجربة التي عندما بدأت، بدأت جامحة وانتهت ذابحة.. لكن هذا لا يغفر لعائلتي فعلتهم ولا يخفف من حجم تضحيتهم الضخمة والرعناء بي..

قرأت يوماً أن الإمبراطور ظهير الدين بابر، دعا الله عند مرض ابنه بمرض مميت، أن يرفع البلاء عنه وأن يوقعه عليه!.. دعا الله أن يفتدي ابنه في المرض فاستجاب الله لدعوة ملك المغول العظيم.. فشفي الابن ومرض الأب.. وعندما حضر الأطباء لتطبيبه من كل أرجاء إمبراطوريته الممتدة الرقعة.. رفض بابر أن يحاول أحد معالجته، وقرر أن يفتدي ابنه الذي رجا الله كثيراً أن يشفيه، فاستسلم للموت من دون أي مقاومة..

فكرت يوم ذاك بالفرق الشاسع بين والدي وبين ذلك الرجل.. والدي لم يكن عظيماً أبداً، والدي كان رجلاً عادياً يعتنق العادات، يبجّل التقاليد ويمجّد الجماعة،

وفي اللحظة التي كان قادراً فيها على أن يكون عظيماً في نظري بوقوفه في وجه كل شيء من أجلي، تنازل عن أبوته وانساق مع ركب القبيلة فوقف معهم أمامي مانعاً إياي من السعادة..

طوال الأعوام الماضية لم أكن أفكر في كل هذا، لم أتعمق فيما جرى بيني وبين والدي، ولم أفكر كثيراً فيما خلّفته خلفي.. ظننت أنني تجاوزت كل ما حدث، لكن حبيبتي عندما جاءت جلبت معها ماضياً جارحاً، وحاضراً جانحاً وشيئاً من طلاسم المستقبل.. فوجدت نفسي عارياً أمام تيار جراحي، وجدت نفسي مثخناً بالماضي الذي لم أشفَ منه والذي ظننت بأنني قد هربت منه برحيلي عنه..

فيكتور هوغو كتب يوماً أننا نقضي نصف العمر ونحن ننتظر لقاء من سنحبّهم والنصف الآخر في وداع الذين أحببناهم، وأنا انتظرتها نصف عمري، ولا أظن بأنني قادر على أن أقضي ما تبقى لي من عمر في وداعها..

لم أكن أظن يوماً أن حب عمري سيجيء بهذا الشكل، لم أتوقع أن ينشأ بهذه الصورة، أن يخلق بهذه السرعة، وأن يحاك بهذا الغموض، والترقب والانتظار

والصمت.. لكنه جاء هكذا، وتجربتي الطويلة في الحياة، وسنوات العبث.. وتاريخ نسائي وأحزاني وتذوّق كل صنف، يجعلني أؤمن جيداً أن هذا حب العمر بلا جدال.. وأنني إن خسرتها فسأخسر حب العمر..

عندما قرأت رسالتها شعرت بأنني عالق ما بين الحزن والسعادة، ما بين الأمل واليأس.. شعرت بأنني غير قادر على تحديد مشاعري ولا على ترتيب أفكاري، شعرت بأنني مبعثر المشاعر ومشتّت الأفكار، ولا نقطة ارتكاز استند إليها أو نقطة ثبات أستقر فيها.. لكنني تمسكت بأمل اللقاء، فجلست في الشقة انتظر هطولها... حتى جاءت!..

جاءت في مساء ذلك اليوم، أدارت المفتاح ودخلت وأنا جالس على الأريكة "أنتظر".. دلفت بعينين لامعتين، صارختين، هائجتين.. أما أنا فبرغم كل حرائقي، لم أقف لاستقبالها، واكتفيت بأن ألتفت بصمت معاتب غاضب ثائر... اقتربت مني، وجلست أمامي على الأرض، سحبت ديوان درويش الذي كان بين يدي وأمسكت بهما، وقالت بصوت شعرت به كصوت وحي

مهيب وهي تلمس ذقني بطرف سبابتها : أتدري بمن يذكّرني صمتك هذا!..

أخذت أتأمل ملامحها بجوع مكابر ولم أردّ، فاسترسلت قائلة بغنج: بجورج إليوت!.. قال يوماً إنّ العاطفة المنطفئة ليست إلا إحدى سمات الحزن!

ـ أتظنينني منطفئ العاطفة؟!..

ـ بل أظنك متوقّد العاطفة حتى أنني أكاد أشعر بلهيبها يلفحني على الرغم من أحزانك!..

ـ أريدك إلى الأبد..!..

ـ كلانا لا يؤمن بالأبدية.. فلماذا تظن بأن رغباتك ستخلد؟!..

قمت من مكاني، وأدرت سخّان ماكينة صنع القهوة.. قلت لها ببرود وأنا أضع قوالب السكر في الكوب: بالمناسبة!.. جورج إليوت امرأة وليس رجلاً..!..

قالت بعصبية: وليكن!..

قلت لها من دون أن ألتفت: أأصابتك العصبية في غيابك..؟!..

ـ أأصابتك اللامبالاة في غيابي؟!..

حملت كوب قهوتي وجلست على أريكة بعيدة عنها، قلت: مللت!.. مللت مزاجية حضورك.. وذبذبة رغبتك في الحضور.. مللت مجيئك وغيابك المفاجئين..

ـ للتو قلت بأنك تريدني إلى الأبد..!.. والآن تقول بأنك مللت..

ـ مللت هذه اللعبة!.. مللت ترقّبي إياك وجهلي بك..

ـ أترغب بالمجازفة بي؟!..

ـ بل أرغب بالمجازفة معك!..

أخرجت محفظة سجائرها، أشعلت واحدة وأخذت تنفث دخانها بعصبية ومن دون أن تلتفت إليّ...

قلت لها بحزم: أنا هذام..!..

التفتت بدهشة: ماذا؟!..

ـ قلت لها مصراً: هذام!.. اسمي هذام..

ـ وهل أنا في عالم آخر لأجهل من تكون!..

ـ ومنذ متى وأنت تعرفين من أكون؟

ـ منذ اصطدامنا الأول..

قلت لها بسخرية: تعرفت عليّ طمعاً بما ورائي إذاً!..

ـ بل طمعاً بما أنت وراءه!..

ـ ألن تخبريني بما أنت وراءه وبما وراءك؟!..

ـ أشاحت بوجهها بضيق وقالت بصوت منخفض: أنا ولّادة!..

قلت بحروف بطيئة محاولاً استيعاب الاسم: ولادة!..

أجابت بحرج لذيذ: وماذا كنت تتخيل أن يكون اسمي؟!..

ـ وغـــرك مـــن عـــهـــد ولادة

ســـراب تـــراءى وبـــرق ومـــض!..

ابتسمتْ بضيق لم تجد إخفاءه: لا يعني كوني ولادة أن تكون ابن زيدون!..

ضحكت بارتياح: لا أنا ابن العاصم من إحدى قرى الرياض..

قالت وهي تشعل سيجارتها الثانية: أنا من قرية العمارة العراقية..

ابتسمت ولم أردّ، فاسترسلت: لا أظن أن عراقيتي تدهشك..

ـ وأين تقع هذه " العمارة "؟!..

ـ قريباً من الأحواز..

ـ أشيعية أنت؟!..

ـ صابئية!..

سألتها مندهشاً: صابئية !!..

قالت بسخرية مريرة: أنا متأكدة من أنك لم تقابل صابئياً أو صابئية خلال حياتك!..

ـ الحق أنني لم أتخيل أنني قادر على مقابلة أحدهم حتى مماتي!.. ظننت أن وجودهم بات مستحيلاً..

ـ أنا أيضاً، بتّ أظن بأنني لن أقدر على مقابلة أحدهم.. ليس هنا على أقل تقدير..

ـ وكيف جئت إلى هنا؟!..

ـ مثلما جئت أنت..

ـ أنا هربت، جئت هارباً من أسرتي..

ـ وأنا جئت لاجئة إلى هنا هرباً من وطني.. يبدو أن كلينا بلا وطن ولا عائلة..

ـ كلانا هاربان إذاً!..

ـ الحق هو أننا منبوذان يا هذام ولسنا بهاربين، أمثالنا ينبذون ولا يهربون..

أخذت أتأملها مبتسماً، كان اسمي عذباً بصوتها،

خيّل إليّ وكأنني أسمع اسمي لأول مرة في حياتي كلها.. لم أكن أدرك أن الأسماء تمنحنا حميميّة لا تقدّر بلذة!.. شعرت بالحب يتدفق في أوردتي وبالمساحات التي كانت تفصل بيننا تتقلص وتتقلص وتتقلص حتى تكاد أن تنعدم..

سألتني: لما صمتّ؟!..

ـ أظن بأنني أقع بك!..

ـ ألا تخشى اختلافي عنك؟!

ـ ألم يقل عمر بن أبي ربيعة بأن الضد يظهر حسنَه الضدُّ..!..

ـ لا حسن في تضاد الأديان!..

سألتها: أتؤمنين بدينك..؟!..

ـ ديني هو علامتي الفارقة، لذا سيظل هناك شيء ما يربطني به !.. شيء يميّزني على الرغم من عدم حبي له..

ـ فلتعلميني إياه إذاً!..

ـ ولما يغريك تعلّمه؟!..

ـ لأنه يعنيك!..

ابتسمت: لكنني لا أستطيع تعليمك إياه!.. فالدين الصابئي للصابئة فقط..

ـ رؤوس أقلام يا امرأة، رؤوس أقلام..!

ـ نحن نصلّي ثلاث مرات في كل يوم، صلاتنا قريبة من صلاة المسلمين لكننا لا نسجد ونتوجه إلى الشمال عندما نصلّي، وفي صلواتنا نتلو آيات من أحد كتبنا، نصوم ثلاثة وثلاثين يوماً من كل عام لكننا لا نصوم عن كل شيء.. نتصدّق مثلما يتصدّق المسلمون.. نحرّم الزنا وشرب الخمر والكذب والظلم، نؤمن بالقضاء والقدر.. بالبعث وبالجنة والنار..

ـ أتتحدثون المندائية في ما بينكم؟

ـ كنا نتحدث المندائية في دارنا كي لا ننساها، فوالدي كان مومناً..

ـ مومناً!..

ـ هو شيخ من شيوخ الصابئة..

واسترسلت ساخرة: لكنني لم أقابل صابئياً يتحدث المندائية منذ أن غادرت العمارة، ربما لأنني لم أقابل صابئياً منذ غادرتها..

ـ أتقرأين كتابكم بالمندائية؟

ـ أنا لا أحتفظ بالكنزا ربه ولم أقرأه يوماً، لكنني أحفظ منه ما أصلّي به.. علمني إياه والدي، وأتلوه بالمندائية بطبيعة الحال..

ـ فلتعلميني إياها!.. فلتكن لغتنا..

قامت من مكانها، ووقفت على شرفة الشقة.. قالت من دون أن تلتفت: فلننسَ الأمر برمّته، أخبرتك أن الدين الصابئي للصابئة فقط ولا أظن أنه من الواجب أن يتحدث بالمندائية غيرهم.. فلا تفكر بهذا الأمر..

اقتربت منها وقلت: ربما أحتاج لأن أتزوّد بإيمانك.. أحتاج إلى مساحة من الإيمان لتجمعنا..

ـ ومن قال بأنني مؤمنة !

ـ رأيتك تصلّين!

ـ أنا لا أصلّي بسبب الإيمان، بل بسبب المرجعية..

ـ وكيف ذلك..؟

ـ أحتاج لمرجع يا هذام!.. شيء أعود إليه بخطاياي وذنوبي وطاعاتي!.. لا أحب أن أكون المرأة المجتثّة.. على الرغم من كرهي لعنصرية الدين..

ـ لكنك ومع كل سوابقك، لديك شيء من الإيمان وبعض من التقوى!..

ـ ألم أقل لك في أول ارتطام جمعنا إنّ القصائد نصوص مقدسة ولا يحق لأحد بأن يمسّها أو يتصرف بها!..

ـ سيغفر لي!.. أدرك تماماً أنه سيغفر لي..

ـ لو تدري لكم أكره الأديان، ولكم أمقت اختلافاتها يا هذام!.. الأديان هي التي تجعلنا نختلف عن بعضنا بعضاً، هي التي تنفينا من أوطاننا، وهي التي تحرمنا من أن نختار من نحب..

ـ ألهذا تركت العراق؟!..

ـ أنا لم أتركها، أنا نفيت منها.. نفتني العنصرية التي وأدت حبي.. ولم أتمكن من مقاومة النفي بلا حب..

شعرت بالغيرة تتسرب في أعماقي وأنا أستمع إلى ولّادة.. لا أدري لماذا غرت من حديثها عن ماض سحيق!.. أنا أدرك أن امرأة بعمرها، امرأة بجمالها.. باختلافها وتفردها.. لم تكن لتبقى طوال هذه الأعوام من دون أن تعشق أو تُعشق.. لكن حديثها بهذه المرارة عن حب قديم.. جعل شيئاً في أعماقي يغلي.. شعرت

بدمي يفور في أوردتي، أنا الذي لم تطأ الغيرة نفسه يوماً..

قالت: فيما تفكر..؟!..

ـ لا أعرف!..

ـ لو تدري كيف يمتقع وجهك حينما تكذب!..

تجاهلتها، عدت إلى أريكتي.. وأخذت أتأملها من بعيد وأنا أفكر في تشابهنا، هي التي نفاها الدين وأنا الذي نفتني العادات، أخذت أفكر في الحبّ الذي جعلني وإياها نتنازل عن كل شيء لنتوه في دروب الغربة الباردة..

سألتها: أتظنين بأن حبك كان استثنائياً!

أجابت بسخرية: أتظن أنني كنت لأكون هنا، لو لم يكن؟!..

صمتّ قليلاً: وماذا أيضاً؟!.. شاكو ماكو؟!..

ضحكت، وضحكت.. وضحكت.. حتى خيِّل إلي أنها لم تضحك يوماً!.. كانت تضحك من أعماقها.. لدرجة أضحكتني على الرغم من النار التي كانت تشتعل في داخلي..

سألتني وهي تضحك: ما أمرك يا رجل..!.. أتغار؟!..

قلت مكابراً: لا أدري!..

ـ أحمرتْ أذناك!..

ـ حقاً!..

قالت: كان حبّاً عاصفاً وقتذاك، لكنه من الماضي.. وأنا أوافق أنيس منصور في أن الماضي جميل لأنه ذهب ولو عاد لكرهناه..

ـ أكان مسلماً..؟!

ـ كان شيعياً مسلماً.. وقد كان زميلي في الجامعة..

ـ لم يكن هناك مجال للزواج إذاً!..

ـ كان زواجنا مستحيلاً، فزواج الصابئية من غير الصابئي يعد انتحاراً.. ما بالك إن كان والدها مؤمناً..!.. والدي كان متعصباً في الدين إلى أبعد حد، كان يستيقظ من نومه ويتوجه في كل صباح إلى النهر ليؤدي الرشامة.. كان متشدداً في أدائنا للبراخة ثلاث مرات يومياً.. كان حريصاً على تعليمنا المندائية مع أن أغلبية الصابئة لم يكونوا يجيدونها وقتذاك..

ـ فلتساعديني قليلاً..!.. فهمت أن البراخة هي الصلاة.. لكنني لم أفهم ما هي الرشامة..

ابتسمت: الوضوء.. كان يتوضّأ في النهر على الرغم من أن مؤمنينا المعتدلين قد أباحوا لنا الرشامة بغير المياه الجارية..

واسترسلت: أتدري أن أغلب الصابئيين يحضرون التعاميد ويؤدون البراخة وهم لا يفهمون شيئاً ممّا يتلونه فيها.. كنت أفكر دائماً كيف نؤمن بما لا نفهمه ونعتنق ما لا يؤثر في دواخلنا.. عندما كنت أحضر التعاميد كنت أشعر بالتأثر والحماسة، لأنني كنت أفهم ما يتلى.. لكن أغلبية الصابئيين لم يكونوا يفهمون شيئاً منها، ومع ذلك كانوا يصرّون على حضور التعاميد وعلى أداء طقوسها بخشوع ومحبة..

ـ متى تركت العراق..؟..

قالت وهي تطفئ سيجارتها: في ديسمبر 1988، بعد انتهاء حرب الخليج الأولى..

ـ وكم كان عمرك وقتذاك؟

قالت مبتسمة: أتطرح كل هذه الأسئلة لتعرف كم أبلغ من العمر؟!.. كنت في الثامنة عشرة..

ـ تماسسين الأربعين إذاً!..

ـ لا يفصلني عنها سوى أشهر..

ـ أتدرين أنني تركت الوطن وجئت إلى هنا في ديسمبر أيضاً..!..

ـ لطالما آمنت أن ديسمبر شهر النهايات..

جلست على الأريكة المقابلة لي واسترسلت: في البداية أنا لم أجئ إلى هنا، بل توجهت إلى بيروت التي كانت تحترق تلك الأيام بفعل العنصرية أيضاً، درست في جامعة القديس يوسف لأشهر ومن ثم تركت لبنان وتوجهت إلى هولندا وأقمت مع إحدى العائلات اللبنانية في روتردام.. أنهيت دراستي الجامعية في العلوم المسرحية.. ومن ثم تعلمت العزف على الكمان.. وحصلت على الجنسية الهولندية بعدها..

ـ ومتى جئت إلى هنا؟!..

ـ في بداية فبراير الماضي..

ـ جئت لتصطدمي بي إذاً!

ـ بل جئت لتصطدم أقدارنا في ليلة من مطر..

ـ وما الذي تفعلينه في لندن؟

ـ أفعل ما أحبه.. وألتقي من أحب..

ـ ألا تفكرين في العودة إلى العراق يوماً؟!

ـ العراق!.. أي عراق!، العراق انتهى برحيل الرصافي والبياتي والحيدري والسياب ونازك.. لم يعد هناك عراق يا هذام.. لم يعد هناك عراق..

أخذت أتأمل تلك المرأة التي كانت تنزّ ألماً..وتنتفض حزناً على وطن كان جلياً كم تجاهد لإنكاره... كانت ولادة تحاول التبرؤ من عراقها لأنه لم يقدر على أن يحتويها ولم يتمكن من إنقاذ حكاية حبها... أخذت أفكر بما تفعله العنصرية فينا.. وكيف تشوّه الأوطان في أعيننا بلا ذنب ترتكبه الأوطان.. سوى أنها ضمّت بين حدودها بشراً ينتمون إلى عقائد وأعراق مختلفة... ولا قدرة لها على أن تجعلهم يتعايشون كسواسية، أو أن تعاملهم بمساواة..

هذه النخلة العراقية السامقة لم يكن من المفترض أن تعيش بعيداً عن عراقها، هذه العاتكة كان من المفترض أن تكون الإلهة إنانا أو أن تكون الملكة شاميرام.. هذه الباهرة كان من الواجب أن تكون قديسة عراقية.. وأن يُعرف العراق بولادة مثلما عرفت الأندلس بولادة أيضاً..

قلت: لو يدرك العراق أي ولادة خسر!.. خسرك العراق يا ولادة.. خسرك العراق!..

ـ العراق لا يأبه لمن يخسرهم يا هذام!.. وأنا لا أعد العراق وطني، بل حيث تكون المساواة يكون الوطن..

ـ أتدرين!.. لطالما آمنت أن العراق مهد الحضارات وموطن التعايش..

ـ ألم يقل أحد خلفائكم إنها أرض شقاق ونفاق؟!..

ـ بل يقال بأنه الحجاج.. وليس الحجاج برجل تُستقى منه الحكمة..!

صمتت، فسألتها: ألا ترغبين بمعرفة تفاصيلي..؟!..

وقفت قائلة: لاحقاً يا هذام!.. لاحقاً..

كان من الواضح أن الحقيقة أنهكتها، وأنها بحاجة لأن تكمل ليلتها وحيدة.. لتتجاوز آلام الحقائق وجروح الماضي التي كان جلياً كم كانت ملتهبة..!.. مسحت على شعرها وأمسكت بيدها ورافقتها حتى الباب..

سألتها وأنا أقبّل رأسها: متى أراك؟

قالت وهي تتنفّسني بقوة: عندما تصطدم أقدارنا مرة أخرى!

أخذت أتأملها وأنا أفكر في ما تعنيه بجملتها تلك، كان واضحاً أنها ليست راغبة بالحديث أكثر، كان جلياً كم هي مرهقة.. وكم هي بحاجة لأن تهرع إلى حيث تنزوي عادة.. فلم أجادلها، مسحت على شعرها وقلت: سأنتظر!..

خرجت ولّادة، وتركتني وحيداً في مواجهة شيء ما لم أفهمه.. كنت مرتبكاً بحزني، متضخماً باليأس.. وبارد الأحلام.. عرفت ليلة ذاك كم هو من الصعب أن نفصل الماضي عن سلسلة الحياة.. وأن سلسلة الحياة التي تبدأ بالماضي لا تمرّ إلا بالحاضر، ولا تنتهي إلا بآخر لحظة يتوجب علينا عيشها في المستقبل.. الماضي هو المرجع الذي يشكل صورة حاضرنا.. وملامح مستقبلنا.. فلماذا نظن بأننا قادرون على طيه وعلى المضي قدماً..؟!..

الماضي الذي نصرّ على أنه مات، سيظل حياً ما دمنا على قيد الحياة.. الماضي لا يموت.. لا يموت!.. موته ليس إلا وهماً، نحاول إقناع أنفسنا به ليغفر

الآخرون لنا أخطاءنا الماضية، ولنقدر على العيش بلا لوم ولا عتب..

اليوم أعرف أن ترسّبات الماضي تملأ نفسي، وبأنني لم أتخلص منها يوماً.. بل كانت تتراكم وتتراكم وتتراكم داخل أعماقي حتى باتت تخنقني، لكنني لم أفهم ذلك قبل اليوم.. لم أفهمه أبداً!..

أنا الذي ظننت أنني انسلخت من كل شيء يربطني بالعائلة وبالدين وبالوطن، كنت مقتنعاً بأنني قادر على أن أنتهي من كل شيء.. وعلى أن أبدأ من حيث انتهيت من دون أن يربطني بالنهاية السابقة شيء.. لم أكن أفهم أن الحياة ليست إلا سلسلة ثلاثية الحلقات، وأن سقوط أي حلقة من حلقاتها هو محال من محالات القدر..

أعرف اليوم أنني ممتلئ بما حدث.. وأن الدروب..كل الدروب تفضي إلى من حيث جئت..

اليوم أعرف أن الأوطان ليست إلا ضحية من ضحايا البشر.. وأننا نحمّلها أكثر مما تحتمل..

أعرف أن البشر المتشرّبين بعادات الجهل وتقاليد البائدين، هم من يدمرون أحلامنا ومن يجتثون قلوبنا، ومن يزرعون في دواخلنا مساحات سوداء من الحقد

الخام.. هؤلاء البشر هم الذين يدفعوننا لأن نهرب من أوطاننا ونترك كل شيء، هم الذين أوهمونا أن القانون يحميهم، وأن الدين يرعاهم.. فلا نجد مهرباً إلا أن نخضع لهم فنصبح نسخة عنهم أو أن نهرع إلى أقرب وطن/ملجأ محاولين نسيان كل شيء..

اليوم أدرك أنني لم أنسَ.. وبأن ما حدث، كل ما حدث، لا يزال نصب عيني مهما حاولت إغلاقهما.. ومهما ادّعيت أنني لا أرى شيئاً مما مضى.. اليوم أدرك أن كل محاولاتي لطمر ما حدث لم تحقق نجاحاً، فلا ذاكرتي عطبت ولا ذكرياتي محيت ولا تمكنت يوماً من الانتهاء مما مررت به..

اليوم أعرف أن قلبي لا يزال يئن عتباً، وأنني غير قادر على العودة من شدة العتب!.. أنا الذي لم أفهم يوماً كيف فعل بي الوطن كلَّ هذا، كيف انتزع مني تلك الطموحات والأحلام، الوطن الذي حرمني من أن أساهم في تقدمه، وفي أن أتسبب في إعماره، وفي أن أمارس حياتي بين ربوعه، وأن أعيش فيه بحب.. وأموت فيه بولع..!..

أعرف أنني غير قادر على العودة الآن، لا شيء في

وطني ينتظرني ولا أحد فيه يحبّني، لكن جزءاً مني يحتاجه، وجزءاً مني يحبّه على الرغم من كل شيء!..
عندما غادرت الرياض قطعت تذكرة الذهاب بلا عودة، وظننت أنني لن أفكر في العودة أبداً.. لكنني أظن الآن بأنني "قد" أرغب بالذهاب يوماً!.. بتفقّد أطلال الحب، بزيارة أنقاض أحلامي واستشعار رماد استقراري..

عندما غادرت، قررت أن أذهب حيث تذهب الريح، فساقتني الريح إلى لندن.. وفيها بدأت حياة جديدة، وعشت في عالم جديد.. وعرفت من خلال لندن كيف أكون رجلاً قاسياً.. بارداً.. لا يلتفت وراءه ولا يندم.. لكن ما تركته ورائي جاء أمامي فجأة!.. واجهني ببسالة نبي جسور.. فارتبكت أفكاري واهتزت مشاعري وتزلزل إيماني باللاإيمان فجأة!..

عندما نحزن في الغربة، تموء أحزاننا حتى يكاد صوت الحزن أن يبحَّ.. في الغربة لا قدرة لأحد على أن يحتضن أوجاعنا ولا على احتواء تبعثرنا.. هناك لا أحد يشبهنا، حتى لو حلقنا ذقوننا.. وسرّحنا رؤوسنا وتحدثنا الإنجليزية بلكنة حمقاء باردة..

هناك، جميعهم يتشابهون.. نحن فقط من نختلف عنهم، نحن الدخلاء الهاربين من جراحنا، اللاجئين من أوطاننا بسبب حزن ما، حرب ما.. حبٌ ما.. عقيدة ما.. قبيلة ما..

هناك، نحن نعيش دون المستوى على الرغم من ترفنا والبذخ الذي يحيط بكل مكان نتواجد فيه، لكنَّ شيئاً ما يجعلنا في نظرهم أقل منهم، شيئاً ما يجعلهم يعتقدون أنهم أفضل منا.. وإن كانوا لا يصرّحون بذلك إلا أن أعينهم تقول لنا طوال الوقت، فلتعيشوا في بلادنا كما ترغبون.. ولتمارسوا حرياتكم بشتى أنواعها.. لكنكم ستظلون، ومهما حاولتم، أقلّ منا في كل شيء..

هناك.. نحن نظل الغرباء مهما اندمجنا في مجتمعهم.. ومهما تشابهت سلوكياتنا مع سلوكياتهم، مهما حاولنا تقليدهم.. وحتى لو حصلنا على جنسيتهم.. نظل نحن الدخلاء عليهم.. فنبقى معلقين بلا انتماء لوطن نعيش فيه، ولا انتماء لوطن تعود جذورنا إليه.. وما أمرّ شعور اللّاانتماء!..

الليلة شعرت بأن يداً تطبق على عنقي.. وبأنني عارٍ في موجة حزن قارسة!.. شعرت أنني لا أزال أقف في

المكان ذاته الذي وقفت فيه عندما وصلت إلى لندن قبل عقدين من الزمن، شعرت أنني لم أتزحزح من مكاني قيد أنملة وبأنني لم أحقق شيئاً على الرغم من مجدي!..

في لحظة ما، تنهار كل أمجادنا فتصبح مجرد شعارات.. وكلمات، ومجاملات.. وأيام جميلة مرت وعبرت وانتهت!، الأمجاد لا تبقى أبد الدهر، سكْرتها تزول بعد أمد.. فتبات في أعيننا وكأن شيئاً لم يكن..

أنا الذي كنت أنتفض في كل ليلة أستلم فيها جائزة أدبية من أي قطر عربي، أنا الذي لم أكن أقدر في أي ليلة من ليالي التتويج على النوم من شدة النشوة، والذي لطالما آمن أن رواياته هي أطفاله الذين سيحملون اسمه، وهي أمجاده التي ستخلده.. أشعر اليوم بأنها ليست إلا مجرد أوراق سيطويها الزمن.. وستتوقف الدُّور عن نشرها يوماً، وسينساها الناس تماماً..

اليوم، أعرف أنني لم أفعل في حياتي شيئاً يستحق المجد، أنني أعيش وحيداً في عالم من صقيع.. وأنني قد أموت قريباً متدثراً بالوحشة، محتضناً الوحدة وممتلئاً بالهم والحزن واليأس..

عندما اضطجعت على فراشي، أخذت الوجوه

والأسماء والأماكن تتراقص في ذاكرتي،... ملامح أبي قبل عشرين عاماً، والذي بات كهلاً الآن، وجوه أخوتي الذين كانوا شباباً.. هشام ورياض ويزيد.. ابتسامات أخواتي سارة ونجلاء ونورة اللاتي أظن بأن أطفالهن باتوا شباباً وشابات.. وأمي التي رحلت وتركتني أصارع البشر والعادات والأحزان وحدي!..

تذكرت عمي فهد السكّير، وعمتي موضي القاسية، وجدتي الطيبة العمياء، تذكرت بيتنا القديم في حي الملز، مزرعتنا الشاسعة في محافظة حريملاء.. ودكان أبي علي الحضرمي في ناصية الشارع.. تذكرت دهاليز جامعة الملك سعود، ومدرسة ابن أبي يزن الثانوية.. وسوق العويس.. وإستاد الملك فهد..

تذكرت صديقي أحمد، وابن جارنا سعيد.. و"شلة" كرة القدم.. والمسجد القريب.. ومستشفى الشميسي ومخيم طريق القصيم..

تذكرت ليلى..!.. وبكيت!..

بكيت وبكيت وبكيت.. أنا حقاً لا أذكر متى آخر مرة بكيت فيها باستثناء المرات القليلة التي أبكتني فيها أغنية البيتلز!.. أظنّ أن دمعي بات شحيحاً منذ أن

وطأت رجلاي أرض لندن، وكأنَّ عينيَّ قد لفحهما البرد فجفّتا.. فبت أقضي سنوات وسنوات بلا بكاء!.. أنا الذي كان يشهق على متن الطائرة المغادرة من الرياض كطفل مضروب، والذي استغرق بكاؤه طوال الرحلة حتى شعرت أنني قد استنزفت كل دموعي.. وإن كانت دموعي حينها لم تفِ مشاعر القهر التي كنت أشعر بها وقتذاك حقها، حتى وإن ذرفتها بحاراً!..

لا أزال أذكر نظرات المسافرين إليّ.. كيف كانوا يلتفتون نحوي بين الحين والحين، وكيف كانوا يتهامسون وهم يشيرون بأعينهم إلي!.. كيف كانوا ينظرون إلي بشفقة واستغراب، وهم يفكرون بالأسباب التي تجعل شاباً في مثل عمري يشهق بكاءً على طائرة متوجهة إلى لندن، لندن التي كانت جنة الشباب وحلمهم الكبير وقتذاك!..

كانت رحلتي تلك أطول رحلة على الإطلاق!.. أنا الذي جبت العالم أجمع بعد تلك الرحلة، والذي قضى في الطائرات مئات الساعات.. لم أشعر يوماً بأن هناك رحلة أطول من رحلة النحيب تلك، تلك الرحلة التي شعرت أثناءها أنني انتقلت من عالم إلى عالم آخر..

الرحلة التي لم تكن كأي رحلة أخرى.. الرحلة التي انتهيت فيها وبدأت منها..

لا أدري أيّ حزن بثّته ولّادة فيَّ تلك الليلة.. لا أدري كيف تجعلنا حقائق الآخرين في مواجهة مع حقائقنا.. فتتعرى أمامنا كل الحقائق وتدمينا ذكرى الوقائع التي عشناها، وذكرى الوقائع التي عاشها من نحبهم ومن نكترث لأمرهم !..

حينما نثرت ولّادة حولي تلك الليلة ما حدث لها وما وقع عليها، شعرت وكأنها كبّت على جراحي الملتهبة كومة ملح، فأوجعتني حتى شعرت بأنني سأموت وجعاً.. شعرت بغرغرينا حزني تنتشر حتى تكاد أن تفتك بي، فلا أنا قادر على بترها ولا أنا قادر على الشفاء منها.. ولا حلَّ سوى أن أستسلم لها.. فأموت حزناً ووجعاً!..

لا أدري كم بكيت ليلتها، احتضنت وسادتي كفتاة مراهقة وبكيت حتى ثملت بكاءً ونمت!.. لا أدري كم من الأيام نمت..!... ربما ليومين أو ثلاثة.. كنت أستيقظ لأقضي حاجتي ولأشرب ماءً وأعود إلى فراشي مجدداً.. فأنام وأنام.. وأستيقظ فأقضي حاجتي وأشرب الماء وأعود إلى النوم.. كنت أحاول الهروب من واقع

لا أفهمه، وجروح بدأت تتعفن بعدما ظننت أنها اندملت!..

استيقظت على قرع شديد على الباب وشيء من صوت جهاد يكاد أن ينقطع في سبيل الوصول إلى مسامعي، قمت متثاقلاً، شعرت أن رأسي ثقيل.. كنت لا أزال تحت وطأة الدمع بعينين منتفختين وصوت مبحوح، ورأس ممتلئ ومزاج قاتم..

فتحت الباب بوهن ليطالعني وجهه الهلع!.. قال بارتياح غاضب: لكّ يخرب بيتك.. هيّ عملة بتعملا؟

أعطيته ظهري وجلست على الأريكة، مددت يدي إلى علبة سجائري.. فسحبها مني بقوة قائلاً: ما أمرك يا هذام!.. بحثت عنك في شقتك وفي كل مكان.. حتى تأكدت أنني لن أجدك إلا هنا إما حياً وإما ميتاً..

لم أكن قادراً على الكلام، كانت كل الأحاديث معلقة في حلقي تأبى الخروج.. وضعت يدي داخل شعري أمسحه وكأنني طفل يستجدي من كبير أن يمسح على رأسه مطمئناً.. قال جهاد آمراً وهو يزفر قلقه: فلتغسل وجهك!، سأعدُّ لك كوباً من القهوة..

كنت أشعر بالضعف نتيجة نومي المتواصل وعدم

تناولي للطعام، فقمت واغتسلت وعدت إلى جهاد في المكان ذاته الذي كنا نجلس فيه آخر ليلة معاً،.. كان جهاد يجلس وأمامه كوبان من القهوة.. وكان عطرها لا يزال فواحاً، وشيء من حضورها لا يزال حاضراً.. لكن شعوراً سيئاً بدأ يتسلل إلي..!.. لا أدري لماذا شعرت أنني لن أراها مرة أخرى، شعرت بحضورها ينسحب من الغرفة وكأنه يأبى البقاء.. جوّ جنائزيّ كان يلف المكان.. وحاسة سادسة تصرخ بأعصابي وبمشاعري أنها لن تجيء بعد اليوم!..

سألني جهاد: لماذا لا تردّ عليّ!.. اتصلت بك عدة مرات ولم ترد ومن ثم أفزعني إغلاقك لهاتفك، فذهبت إلى شقتك ولم أجدك فعرفت أنني قد أجدك هنا، إما حياً وإما ميتاً..

ـ كنت نائماً!.. لا بد من أن بطارية هاتفي قد فرغت لذا أغلق الهاتف..

ـ أنائم أنت منذ ثلاثة أيام؟!..

ـ تقريباً!..

ـ لماذا؟.. ما الأمر؟..

شعرت بأنني غير قادر على النقاش، فقلت له محاولاً إنهاء الحوار: لا أمر!.. كنت منهكاً من الكتابة فقط..

شعر جهاد بأنني بحاجة للبقاء وحيداً، فقام من مقعده قائلاً: لا بأس، المهم أنك بخير.. على أي حال لا تنسَ أن ترسل إليّ بمقالتك قبل مساء هذا اليوم..

أشرت برأسي بالإيجاب، فأخرج من جيب معطفه تذكرة ومنشوراً دعائياً رماهما على الطاولة أمامي وقال: على فكرة، اتصلت بك قبل يومين لندعوك أنا ومادلين لحضور حفلة موسيقية أقيمت قبل ليلتين.. لكنك أضعت على نفسك فرصة التمتع بالأمسية الموسيقية وبقضاء ليلة جميلة معنا..

قلت له: لست بمزاج لأن أحضر أية حفلة أو احتفال يا جهاد..

قال وهو يخطو خطواته نحو باب الخروج: لك تصطفل!.. ما تنسى المقال!..

فكرت أن أعود إلى النوم بعدما تركني جهاد، لكنني كنت أعرف أنني سأموت لا محالة إن ظللت على هذه الحال.. حاولت أن لا أركّز في مشاعر الوهن، وأن لا أمنح حاجتي بالاستسلام والنوم أي مجال،.. فأعددت

فطوراً بالكاد تمكنت من تناوله، وارتديت ملابس أنيقة وأخذت منشور دعاية الحفلة الموسيقية ومسوّدة روايتي المعلقة بلا نهاية وخرجت للبحث عن حياة..

كنت أحاول أن أطرد أفكاري السلبية التي أصبحت تتفاقم.. فخرجت أمشط الشوارع بلا غاية، لتقابلني وجوه زرقاء من شدة البرد وعدم الاكتراث!.. كنت أمشي بلا هدف وأنا أسعل برداً وكآبة.. شيء ما في لندن كان يزأر، كان يشير بيده إليَّ صائحاً في وجهي: أنت فاشل!..

واليوم أنا أعرف جيداً أنني لست إلا فاشلاً، فما معنى أن نحقق نجاحاً عملياً ومجداً أدبياً إن لم نحقق أي إنجاز عاطفي!.. ما فائدة المجد والشهرة إن لم يكن هناك سعادة!.. السعادة التي لا تتحقق إلا بالاستقرار.. الاستقرار الذي لا يحتوينا إلا عندما تضمّنا العاطفة، العاطفة التي مصدرها العائلة أو العاطفة التي تصبح مصدراً لخلق عائلة، وأنا نجحت في كل شيء عدا عاطفتي!.. ولا أظن بأنني سأقدر على النجاح في خلق عائلة ذات يوم..

كنت أمشي في طرقات لندن، بحثاً عن وجه

يعزّيني.. بحثاً عن ملامح تشبهني، لكن ملامح من يشابهونني هاربة من ملامح من يشابهونها.. فكيف أبحث عن من يهربَ مني، أنا الذي لطالما هرب من تلك الملامح؟!..

جلست في المقهى الذي كنت أقابل ولّادة فيه... كنت أحاول أن أستجمع أحزاني لأتمكن من إنهاء روايتي،.. لكن ولادة كانت كل ما أفكر فيه.. كنت أشعر أنني لن أقابلها مرة أخرى.. لن أراها أبداً، على الرغم من وعدها المعلق الغامض الأخير، أنا رجل حاسته السادسة تفوق حواسه الخمس في دقة الإحساس!.. رجل يجيد التكهن بكل سيِّء قد يصيبه، وبكل مصيبة قد تحلّ عليه، وبكل نهاية تقترب منه.. رجل يعرف النساء، ويدرك متى يبدأن معه وكيف يرحلن عنه ومتى ينتهين منه..

الفراق مرّ، مرّ جداً.. تعتقد النساء أن الرجال قادرون على النسيان بسهولة.. وأن تجاوز علاقتهم الفاشلة لا يتطلب شيئاً، وهنَّ لا يدركن أن الرجل عندما يقع في حبّ امرأة يتشرّب بها، وتتلبس به.. النساء لا يفهمن أن حبّ عمر الرجل لا ينسى..

لم أكن أظنّ أنّ حبي سيأتي بهذه الدراماتيكية القاسية.. حبّ متأرجح الحضور على الرغم من ارتفاع حرارته.. مبهم الحقائق على الرغم من حدته.. حب جاء ليعرّيني وليتركني مذعوراً.. حب بدأ ضبابياً وانتهى ما أن تجلًى!..

حاولت الكتابة،.. حاولت أن أبتدئ مقالي أو أن أنتهي من روايتي لكنني لم أتمكن من كتابة أي شيء، وعندما أمسكت المنشور المخصّص للحفلة الموسيقية، صدمتني صورة أندريه ريو وصورة ولادة بفستان أسود طويل.. تحمل على كتفها ناياً.. وشعرها الأسود يملأ الإعلان بصورة تراجيدية مثيرة!.. كتب في الإعلان: الفنان الهولندي أندريه ريو ترافقه الفنانة الهولندية ولّادة رافد يودّعان لندن بحفلة موسيقية يحييانها في آخر أيام الأعياد..

لم أكن قادراً على الشعور بأي شيء حينذاك، من كان يصدّق بأنني كنت قاب قوسين أو أدنى من أن أراها لآخر مرة!.. أن أراها كما هي في حقيقتها..؟!.. تمارس ما تحبه أمام من تحبه..؟!.. ومع من؟!.. أندريه ريو!.. لم أكن قادراً على استيعاب كم من

الممكن أن تسخر منا الأقدار.. وكم من الممكن أن يكون شيء قريب منا بعيداً عنا..؟..

لحظتها، تأكدت من أنني لن أراها.. وأن اصطدامنا الذي منّتني به قد لا يحدث أبداً.. لحظتها شعرت أن ديسمبر يكاد أن يخنقني.. ولا أدري لماذا يسعى لإيذائي ديسمبر!..

لكم تعذبني لياليه الواحدة والثلاثون.. تجلدني بسياط الترقّب كزانٍ، وتقرع طبول الخوف داخل قلبي.. كاحتفاء غجري ثائر ومجنون لا يفهم!..

أنا لا أنكر مزاجيتي،.. لكن ديسمبر فوق كل أمزجتي..!.. ديسمبر شهر سلطوي بكل تأكيد.. ذو سطوة وهيبة وتأثير.. لكنني لا أفهم على الرغم من كل ذلك.. لماذا تنتهي كل الأحلام في ديسمبر!..

قال لي أحد أصدقائي الذين يفلسفون كل شيء، إنَّ كل الأحلام تنتهي بالنسبة لي في ديسمبر، لأن أغلى أحلامي انتهت فيه.. قال لي إنّ بعض خسائرنا ترتبط تلقائياً في أعماقنا بالموسم أو بالشهر الذي خسرناها فيه.. وبالتالي يصبح هذا الموسم/الشهر.. موسم تأبين بالنسبة لنا في كل عام، لأن ذكرياتنا تئن خلاله في

لاوعينا.. وبالتالي تمر أيام الذكرى بمرارة وحزن لا نفهم أسبابهما..

لذا أنزوي في كل عام فيما يبدو أنه شهر أعياد بالنسبة للعالم.. ففي ديسمبر يحتفي البشر جميعهم في شتى أقطاب الأرض بأعياد تتلو الأعياد في شهر ظاهره احتفائي لامع وجذاب، لكن في قلب ديسمبر تكمن أحزان الناس وخسائرهم..

نحاول الفرح بالألعاب النارية التي تدوي احتفاء في كل مكان، نجاهد لتصديق أن سانتا كروز يشيع البهجة في قلوب البالغين.. نسعى لأن نستمتع بموسيقى الفرح المنبعثة من الأرجاء، والضحكات والرقصات والأمنيات!..

كل هذا ادعاء.. كل هذا لا يسعد "فعلاً" إلا الأطفال.. أما نحن، فنرقب ديسمبر بعين تكاد أن لا ترمش خوفاً من مَكره..!..

شعرت بالكآبة تخنقني.. وبالرغبة في أن أنتهي من كل شيء.. مثلما انتهى كل شيء مني.. فغادرت المقهى إلى المنزل أجرّ أذيال الخسارة والخذلان.. وفي طريقي شاهدت امرأة تعزف الكمان على ناصية الشارع، وقفت

أستمع إلى ألحانها.. وأنا أفكر في التي عزفت أحزانها وغابت، من دون أن تسمع أنين أحزاني ومن دون أن تمنحني فرصة وداعها..

كان رحيلها بتلك الطريقة أكبر من أن أقدر على تحمّله.. شعرت وكأنها جاءت لتشحن ذاكرتي بكل حزين ومؤلم فيها... وكأنها جاءت لتوجعني وترحل!.. كان رحيلها شديد المرارة بقدر ما كان مجيئها لاذع الحلاوة..

ولّادة لم تكن سهلة الطباع، كانت مغرورة، عنيدة، مكابرة.. وتفوق ناريس في نرجسيته.. لكنها كانت تشابهني في أوجه عديدة.. كانت تشبع مقدساتي الأربعة التي لم ولن تقدر امرأة غيرها على أن تشبعها..

أنا رجل يقدّس عقله قبل أي شيء، يقدّس روحه وقلبه وجسده.. رجل يحتاج إلى امرأة تحترم مقدساته، تحبها.. تشبعها.. وتملك مقدسات لا تقلّ عن مقدساتي في قداستها!.. وأنا على يقين أن هذه المرأة لن تكون سوى ولادة..

لكنني لن أبحث عنها،

لن أبحث عنها مهما توجّعت!.. فكل شيء يبتدئ

لسبب، وكل شيء ينتهي لسبب آخر !، وأنا أدرك الآن أن تلك الرسولة لم تبعث إلا لتوصل إليّ رسالة ما، وتبثّ فيّ وحي العودة.. لكنني على الرغم من إيماني بما أرسلت من أجله، لن أستجيب للرسالة..

أخرجت محفظتي من جيب معطفي، وأخذت باوند ولّادة الذي عايدتني به في عيد مضى.. وضعته هو ومسوّدة روايتي والإعلان الدعائي لحفلة ولّادة وساعة يدي التي تتقدم توقيت لندن في الصندوق الذي كانت تعزف المرأة أمامه بلا أدنى شعور بالندم..

ففي ديسمبر تنتهي كل الأحلام!..

25/ 12/ 2010م

**أثير عبدالله النشمي**

"ربي إني لا أسألك أن تخفّف
حملي.. لكنني أسألك أن تمنحني
ظهراً قوياً".

**غوته**

أنا مكتئب!.. مكتئب جداً... وعادة لا تصيبني الكآبة أثناء كتابتي لأي عمل.. أنا رجل لطالما أحب مرحلة الكتابة، رجل يستمتع بكل ما يصاحب تلك المرحلة المرهقة من أرق وألم وتضارب في المشاعر، لكنني، وما أن يرى كتابي النور.. حتى أصاب باكتئاب ما بعد الكتابة، فأكره كتابي (الوليد) لدرجة أشعر معها بالرغبة في أن أوئده وأتلف كل نسخه.. لكن حالة الكآبة بدأت مبكرة هذه المرة.. استبقت كآبتي نوفمبر، واستبقت أيضاً روايتي الجديدة.. ولا أدري إن كنت قادراً على أن أصمد حتى يناير القادم أو حتى إصدار الرواية ..

اثير عبد الله النشمي، من مواليد يونيو 1984 م.

– سعودية، مقيمة في الرياض و كاتبة أسبوعية في جريدة شمس.

– صدر لها: أحببتك أكثر مما ينبغي، دار الفارابي، طـ 1 2009، طـ 2 2010.

ISBN 978-9953-71-688-6

